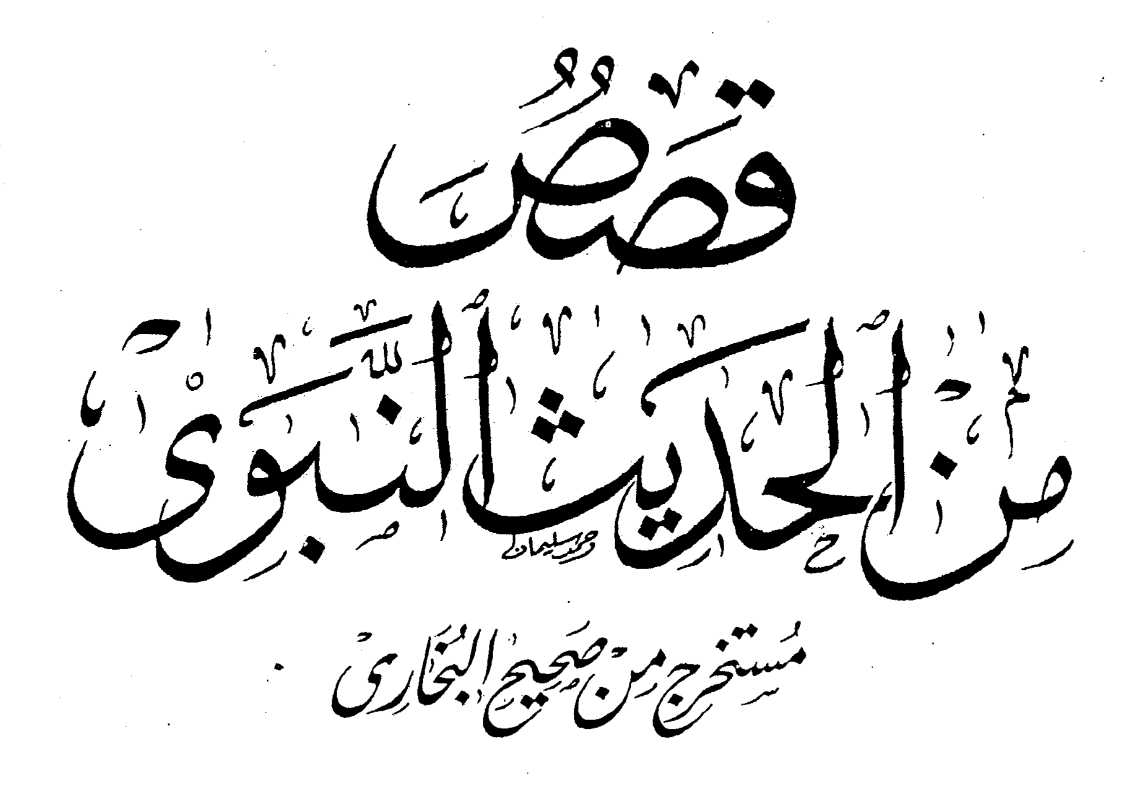


الجزء العاشر

تابع مهام رسول الله ﷺ بالمدينة

[الغزوات والسرايا والبعوث]

تأليف

أ.د/ موسى شاهين لاشين

د/ حصة عبد العزيز السويدي

د/ أماني موسى شاهين

قصص من الحديث النبوي

مستخرج من صحيح البخاري

الجزء العاشر

تابع مهام رسول الله ﷺ بالمدينة

[الغزوات والسرايا والبعوث]

تأليف

الأستاذ الدكتور / موسى شاهين لاشين
رئيس قسم الحديث بجامعة الأزهر سابقا

الدكتور
حصة عبد العزيز السويدي
أستاذ الحديث وعلومه المساعد
جامعة قطر

الدكتور
أماني موسى شاهين
أستاذ الحديث وعلومه المساعد
بفرع جامعة الأزهر للبنات

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة يوسف ، ١١١]

غزوة الخندق (الأحزاب)

وفى شوال من نفس السنة كانت غزوة الخندق أو الأحزاب .

سببها ومقدماتها : بعد إجلاء بنى النضير خرج حيى بن أخطب إلى مكة يحرض قريشًا على رسول الله ﷺ ، وخرج كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق يسعى إلى بنى غطفان ، ويحضهم على قتال رسول الله ﷺ ووعدهم بنصف ثمار خيبر ، فأجابه عيينة بن حصن الفزارى ، وتعاهدوا وكتبوا إلى حلفائهم من بنى أسد ، فأجابهم طلحة بن خويلد ، وجاءهم فيمن أطاعه ، وخرج أبو سفيان بن حرب بقريش حتى نزل بمر الظهران وجاءهم من أجابهم من بنى سليم مددًا لهم ، فصاروا فى جمع عظيم ، قيل : وصل المشركون أربعة آلاف وقيل : عشرة آلاف ، والمسلمون نحو الألف ، وقيل : ثلاثة آلاف ، وتوجه حيى بن أخطب إلى بنى قريظة ، فلم يزل بهم حتى غدروا ، وانضموا إلى الأحزاب ، وبعث رسول الله ﷺ إليهم من يأتى بخبرهم ، ويستوثق من نقضهم ، فرجع يؤكد غدرهم وانضمامهم لمشركى قريش .

فسميت الأحزاب لتحزب وتجمع قريش وغطفان واليهود ومن تبعهم من القبائل الأخرى . علم الرسول ﷺ بهذا التحزب ، فاستشار أصحابه ، فقال سلمان الفارسى : يا رسول الله . إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا ، فاقتنع الرسول ﷺ وصحابته بالخطة ؛ لأن الأعداء جموع كثيرة لا قبل للمسلمين بهم ، ومن الصعب هزيمتهم أو الحيلولة بينهم وبين المدينة .

أمر النبى ﷺ أصحابه بحفر الخندق حول المدينة، فسارعوا إلى عمله، واشترك معهم فى حفره رسول الله ﷺ حتى فرغوا منه فى جو شديد الحرارة، يعمهم العوز والجوع الشديد، تصور لنا هذه الأحداث الأحاديث:

٤٠٩٨ – عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِى الْخَنْدَقِ ، وَهُمْ يَحْفِرُونَ ، وَنَحْنُ نَنْقُلُ التُرابَ على أكْتَادِنَا – على أكتافنا وظهورنا – فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ الآخِرَهْ ، فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ » .

٤٠٩٩ – وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : خرج رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ ، فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِى غَدَاةٍ بَارِدَةٍ ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ ، فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالْجُوعِ قَالَ : « اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ » فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ : نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا .

٤١٠٠ – وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : جَعَلَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ ، وَيَنْقُلُونَ التُّرَابَ عَلَى مُتُونِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ : نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الإِسْلَامِ مَا بَقِينَا أَبَدَا قَالَ : يَقُولُ النَّبِىُّ ﷺ وَهُوَ يُجِيبُهُمْ : « اللَّهُمَّ إِنَّهُ لاَ خَيْرَ إِلاَّ خَيْرُ الآخِرَهْ ، فَبَارِكْ فِى الأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ » . قَالَ : يُؤْتَوْنَ بِمِلْءِ كَفِّى مِنَ الشَّعِيرِ ، فَيُصْنَعُ لَهُمْ بِإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ – أى بدهن قديم له رائحة منتنة – تُوضَعُ بَيْنَ يَدَىِ الْقَوْمِ ، وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ ، وَهِىَ بَشِعَةٌ فِى الْحَلْقِ – صعبة عند بلعها – وَلَهَا رِيحٌ مُنْتِنٌ .

٤١٠١ – وعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ ، فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ – صخرة صلبة – شَدِيدَةٌ ، فَجَاءُوا النَّبِىَّ ﷺ فَقَالُوا : هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِى الْخَنْدَقِ ، فَقَالَ : « أَنَا نَازِلٌ ». ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ لاَ نَذُوقُ ذَوَاقًا ، فَأَخَذَ النَّبِىُّ ﷺ الْمِعْوَلَ فَضَرَبَ ، فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ أَوْ أَهْيَمَ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِى إِلَى الْبَيْتِ – فأذن لى – فَقُلْتُ لامْرَأَتِى : رَأَيْتُ بِالنَّبِىِّ ﷺ شَيْئًا ، مَا كَانَ فِى ذَلِكَ صَبْرٌ ، فَعِنْدَكِ شَىْءٌ ؟ قَالَتْ : عِنْدِى شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ – أنثى معز – فَذَبَحْتُ الْعَنَاقَ ،

وَطَحَنَت الشَّعِيرَ ، حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِى الْبُرْمَةِ ، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِىَّ ﷺ وَالْعَجِينُ قَدْ انكسرَ - لان وتخمر - وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الأَثَافِىِّ - بين الحجارة التى تضم النار - قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضج فقُلْتُ : طُعَيِّمٌ لِى ، فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّه ورجُلٌ أوْ رجُلانِ . قَالَ : « كَمْ هُوَ » ؟ فَذَكَرْتُ لَهُ ، قَالَ : « كَثِيرٌ طَيِّبٌ ». قَالَ : « قُلْ لَها لاَ تَنْزِعُ الْبُرْمَةَ وَلاَ الْخُبْزَ مِنَ التَّنُّورِ حَتَّى آتِىَ » . فَقَالَ : « قُومُوا » . فقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِه قَالَ : وَيْحَكِ جَاءَ النَّبِىُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَمَنْ مَعَهُمْ . قَالَتْ : هَلْ سَأَلَكَ؟ قُلْتُ : نَعَمْ . فَقَالَ : « ادْخُلُوا وَلاَ تَضَاغَطُوا » - ولا تتزاحموا - فَجَعَلَ يكسرُ الْخُبْزَ ، ويَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ ، وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا ، وَبَقِىَ بَقِيَّةٌ قَالَ : « كُلِى هَذَا وَأَهْدِى ، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ » .

٤١٠٢ - وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رضى الله عنهما - قَالَ : لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِىِّ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا ، فَانْكَفَأْتُ إِلَى امْرَأَتِى فَقُلْتُ : هَلْ عِنْدَكِ شَىْءٌ ؟ فَإِنِّى رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا . فَأَخْرَجَتْ إِلَىَّ جِرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا ، وَطَحَنَت الشَّعِيرَ فَفَرَغَتْ إِلَى فَرَاغِى ، وَقَطَّعْتُهَا فِى بُرْمَتِهَا ، ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ : لاَ تَفْضَحْنِى بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِمَنْ مَعَهُ . فَجِئْتُهُ ، فَسَارَرْتُهُ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ . ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا وَطَحَنَّا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا ، فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ . فَصَاحَ النَّبِىُّ ﷺ فَقَالَ : « يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ ، إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا فَحَىَّ هَلا بِكُمْ » . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لاَ تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ ، وَلاَ تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّى أَجِىءَ » . فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِى ، فَقَالَتْ : بِكَ وَبِكَ . فَقُلْتُ : قَدْ فَعَلْتُ الَّذِى قُلْتِ . فَأَخْرَجَتْ لَهُ عَجِينًا ، فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى

بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ ، ثُمَّ قَالَ : « ادْعُ خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعِى وَاقْدَحِى مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلاَ تُنْزِلُوهَا ، وَهُمْ أَلْفٌ ، فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانْحَرَفُوا ، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ - تغلى وتفور - كَمَا هِىَ ، وَإِنَّ عجيننا لَيُخْبَزُ كَمَا هُوَ .

٤١٠٤ - وعَنِ الْبَرَاءِ ﷺ قَالَ : كَانَ النَّبِىُّ ﷺ يَنْقُلُ التُّرَابَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَتَّى أَغْمَرَ بَطْنَهُ أَوِ اغْبَرَّ بَطْنُهُ يَقُولُ :

وَاللَّهِ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا	وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا	وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا
إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا	وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ : أَبَيْنَا أَبَيْنَا.

٤١٠٦ - وعَنْ الْبَرَاءِ ﷺ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ الأَحْزَابِ ، وَخَنْدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأَيْتُهُ يَنْقُلُ مِنْ تُرَابِ الْخَنْدَقِ حَتَّى وَارَى عَنِّى الْغُبَارُ جِلْدَةَ بَطْنِهِ ، وَكَانَ كَثِيرَ الشَّعَرِ ، فَسَمِعْتُهُ يَرْتَجِزُ بِكَلِمَاتِ ابْنِ رَوَاحَةَ ، وَهُوَ يَنْقُلُ مِنَ التُّرَابِ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا	وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا	وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا
إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا	وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

قَالَ ثُمَّ يَمُدُّ صَوْتَهُ بِآخِرِهَا .

وجاءت الأحزاب فرأوا الخندق ، فتعجبوا وتحيروا ، ونزلت قريش بمجتمع السيول ، ومعهم من تبعهم من بنى كنانة وتهامة ونزل عيينة بن حصن بغطفان ومن معهم من أهل نجد إلى جانب واحد ، وخرج

رسول الله والمسلمون فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع ، والخندق بينهم وبين القوم ، وهو أشبه بمجرى نهر لا ماء فيه ، عرضه يزيد على خمسة أمتار ، وعمقه يصل إلى ثلاثة أمتار ، ونساء المسلمين وأطفالهم بالبيوت والحصون ، وعلم المسلمون بنكث اليهود للعهود واتفاقهم مع الأحزاب ، وأراد رسول الله ﷺ أن يستوثق من غدرهم ، فأرسل إليهم سيد الأوس سعد ابن معاذ ، وسيد الخزرج سعد بن عبادة ، ومعهما عبد الله بن رواحة ، وقال لهم : انظروا . أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقًّا فالحنوا لى لحنًا أعرفه ، ولا تفتوا فى أعضاد الناس ، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم ، ونالوا من رسول الله ﷺ ، وقالوا : مَن رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبينه، فشتمهم سعد بن معاذ وشاتموه، وجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره بالشفرة المتفق عليها . قال : عضل والقارة ، أى غدر كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع . فاشتد الفزع والبلاء . يصور لنا هذا الموقف قوله تعالى : ﴿ **إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ** ﴾ من أعلى الوادى من جهة المشرق، يقصد بهم بنو غطفان ومن تابعهم من أهل نجد وبنو قريظة ﴿ **وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ** ﴾ من أسفل الوادى من جهة المغرب ، يقصد بهم قريش ومن تابعهم ﴿ **وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ** ﴾ ومالت وانحرفت عن مستوى نظرها ، واضطربت، ودهشة ﴿ **وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ** ﴾ وخافت خوفًا شديدًا ، وفزعت فزعًا عظيمًا ﴿ **وَتَظُنُّونَ** ﴾ معشر المؤمنين ﴿ **بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾** ﴾ المختلفة ، فيظن المخلصون منكم أن الله سينجز وعده ، وسيعلى دينه ، وسينصر نبيه ، ويظن الآخرون أن الله قد يبتليهم كما فعل بهم فى أحد ، وهذا من خواطر النفس التى يحدثها الخوف الطبيعى ، ولا يمكن دفعها ، فهى عفو ﴿ **هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ** ﴾ بشدة الحصار والجوع والخوف والفزع

والاضطراب ﴿ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ وضعف إيمان ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝ ﴾ (١).

روى أن الصحابة وهم يحفرون الخندق عرضت لهم صخرة بيضاء، صلبة جدًا ، لم تؤثر فيها المعاول ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ ، فأخذ معول سلمان الفارسى رضي الله عنه ، فضربها ضربة كسرتها ، وبرق منها بريق شديد ، فكبر رسول الله ﷺ وكبر المسلمون ، ثم ضربها الثانية ، فتصدعت وبرقت ، فكبر رسول الله ﷺ وكبر المسلمون، ثم ضربها الثالثة فتصدعت وبرقت ، فكبر رسول الله ﷺ وكبر المسلمون ، ثم قال رسول الله ﷺ لأصحابه : أبشروا بالنصر ، فقد أضاء لى فى الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى ، فأخبرنى جبريل عليه السلام أن أمتى سيظهرون عليهم ، وأضاء لى الثانية أرض الروم ، فأخبرنى جبريل عليه السلام أن أمتى سيظهرون عليهم ، وأضاء لى فى الثالثة قصور صنعاء ، وأخبرنى جبريل عليه السلام أن أمتى سيظهرون عليها .

فلما أن جاء الأحزاب وابتلى المؤمنون وزلزلوا وانزعجوا قال رجل من الأنصار ، وكان منافقًا : ألا تعجبون ؟ يحدثكم ويعدكم – ونحن نحفر الخندق – بقصور الحيرة ومدائن اليمن وقصور الروم ، وأحدنا اليوم لا يستطيع أن يبرز لقضاء حاجته ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ هو عبد الله بن أبى وأتباعه ، قال بعضهم لبعض : لا ينبغى لكم أن تقيموا هنا ، فارجعوا إلى منازلكم بالمدينة ، ليكون أسلم لكم من القتل ، ولتكون لكم يد عند الأحزاب ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ ﴾

(١) سورة الأحزاب – الآيتان : ١٠ ، ١١ .

فى الرجوع ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ ضعيفة الحوائط قصيرة الأسوار ، ينكشف أهلنا داخلها ، وخالية من الرجال ، معرضة للعدو ﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ﴾ فى حقيقة الأمر ﴿ إِن يُرِيدُونَ ﴾ بالاستئذان ﴿ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ وهربا من القتال ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾ أى ولو أذن لهم فى الرجوع ، ورجعوا إلى بيوتهم ، ثم دخل عليهم فيها أهل الفساد والدعارة من جميع نواحيها ، ثم سألوا الرجوع عن إسلامهم لرجعوا .

ثم تكلم القرآن عن جماعة من بنى حارثة أو من بنى سلمة جبنوا وانزعجوا من الموقف فقال : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾ أى يعلم الله علمًا أكيدًا المثبطين منكم عن رسول الله ﷺ وهم جماعة المنافقين الذين استأذنوا ورجعوا ﴿ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ المنافقين ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ ﴾ وكانوا يكتبون لإخوانهم أن استأذنوا وتعالوا معنا ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ ﴾ الحرب والقتال ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً ﴾ وبخلاء ﴿ عَلَيْكُمْ ۖ ﴾ بأموالهم وأنفسهم ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ

يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ .

ومن جبن هؤلاء أنهم حتى بعد انسحاب الأحزاب ورحيلهم يخافونهم ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ كرة ثانية ﴿ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [1].

وهكذا فضحت الآيات المنافقين وموقفهم فى غزوة الأحزاب ، ثم هددتهم فقال تعالى : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ عن نشر أخبار السوء ، وإيذاء المؤمنين ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾ أى لندعونك ونحرضنك على قتالهم وإجلائهم ﴿ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾ [2].

ونعود إلى معارك غزوة الأحزاب . نعم ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدًا ، جيوش الأعداء جرارة وأسلحتهم وأعتدتهم غالبة قاهرة ، ماذا لو اقتحموا الخندق بردم معبر فى مكان من أماكنه ؟ فكر رسول الله ﷺ أن يغرى غطفان بالمال لتنسحب فأرسل إلى عيينة بن حصن زعيم غطفان وقائدها يعرض عليه ثلث ثمار المدينة على أن يرجع هو من معه ، ووافق عيينة ، وأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة يستشيرهما فى ذلك ، فقالا له : يا رسول الله . أمرًا تحبه فنصنعه ؟ أم شيئًا أمرك الله

---

(١) سورة الأحزاب – الآيات : ١٢– ٢٠ .

(٢) سورة الأحزاب – الآيتان : ٦٠ ، ٦١.

به ، لابد لنا من العمل به ؟ أم شيئًا تصنعه لنا ؟ قال : بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، واشتدوا عليكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما . فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله . قد كنا وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأصنام ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا إلا قرىً – ضيافة – أو بيعًا . أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا الله ، وأعزنا الله بك وبه ، نعطيهم اموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . قال رسول الله ﷺ : فأنت وذاك . فتناول سعد الصحيفة فمحْا ما فيها .

وجاء نعيم بن مسعود الغطفانى ﷺ إلى رسول الله ﷺ ، وقال : يا رسول الله . إنى قد أسلمت ، ولا يعلم بإسلامى أحد من قومى ، فمرنى بما شئت . قال له رسول الله ﷺ : خذِّل عنا من استطعت ، فإن الحرب خدعة . فأتى بنى قريظة – وكان نديمًا لهم فى الجاهلية ، فقال : يا بنى قريظة ، قد عرفتم ودى إياكم ، وخاصة ما بينى وبينكم . قالوا : صدقت . لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : إن قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم . البلد بلدكم. فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فإن رأوا فرصة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم ، يكون بأيديكم ثقة لكم أن تقاتلوا معهم محمدًا . فقالوا له : قد أشرت بالرأى ، ثم خرج حتى أتى قريشًا ، فقال لأبى سفيان ومن معه من رجال قريش : قد عرفتم ودى لكم وعداوتى محمدًا ، وإنه قد

بلغنى أمر قد رأيت علىَّ حقًّا أن أبلغكموه ، نصحًا لكم ، فاكتموا عنى ، قالوا : نفعل . قال : تعلمون أن يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ من القبيلتين ، من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم ، فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم : أن نعم ، فإن بعثت إليكم يهود ، يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلا واحدًا .

ثم خرج إلى غطفان ، فقال : يا معشر غطفان ، إنكم أصلى وعشيرتى وأحب الناس إلى ، ولا أراكم تتهموننى . قالوا : صدقت . ما أنت عندنا بمتهم . قال : فاكتموا عنى . قالوا : نفعل . فما أمرك ؟ قال لهم ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم .

فأرسل أبو سفيان ورءوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان ليقولوا لهم : إنا لسنا بدار مقام ، وقد هلك الخف والحافر ، وطال بنا انتظاركم ، فاغدوا للقتال معنا حتى نناجز محمدًا ونفرغ ما بيننا وبينه ، فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمدًا معكم حتى تعطونا رهنًا من رجالكم ، يكونون بأيدينا حتى نناجز محمدًا ، فإنا نخشى إن نالت منكم الحرب ، واشتد عليكم القتال أن تتشمروا وتسرعوا إلى بلادكم ، وتتركونا والرجل فى بلدنا ، ولا طاقة لنا بذلك منه ، فلما جاءت الرسل بما قلت بنو قريظة قالت قريش وغطفان : ما حدثنا به نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا إلى بنى قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلا من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا .

فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا

رُهْنا ، فأبوا عليهم ، وخذل الله بينهم .

وقد ظل رسول الله ﷺ يخشى أن تأتى بنو قريظة ، فبعث الزبير بن العوام طليعة يأتى بخبرهم يحدثنا عن ذلك الحديث رقم :

٤١١٣ - عَنْ جَابِرٍ ﷺ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ : « مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ » . فَقَالَ الزُّبَيْرُ : أَنَا . ثُمَّ قَالَ : « مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ » ؟ فَقَالَ الزُّبَيْرُ : أَنَا . ثُمَّ قَالَ : « مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ » ؟ فَقَالَ الزُّبَيْرُ : أَنَا . ثُمَّ قَالَ : « إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا ، وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ » .

وحاصرت قريش وغطفان جيوش المسلمين عشرين يومًا .

لم يكن بينهم قتال ، اللهم إلا مراماة بالسهام ، وإلا فوارس من قريش وقفوا بخيلهم على الخندق ، وتصدروا مكانًا منه ضيقًا فى تربة سنجة ، فأهالوا بعض التراب منزلا منحدرًا ، ثم أقحموا خيلهم ، وكان أعدهم عمرو ابن عبد ود ، وكان قد قاتل يوم بدر حتى أثخنته الجراح ، فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق اقتحمه بفرسه ، يتيه بنفسه ، ويقول : من يبارز ؟ فنزل إليه على بن أبى طالب ﷺ ، فنزل عمرو عن فرسه ، فعقره ، ثم أقبل على علىٍّ . قال له علىٌّ : يا عمرو . إنك كنت قد عاهدت الله أن لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خصلتين إلا أخذتها منه ، قال له : أجل . قال له علىٌّ : فإنى أدعوك إلى الله ورسوله وإلى الإسلام ، قال : لا حاجة لى بذلك ، قال : فإنى أدعوك إلى النزال ، فقال له : يا ابن أخى . فوالله ما أحب أن أقتلك . قال له علىٌّ : ولكنى أحب أن أقتلك ، فحمى عمرو من هذه الكلمة فتنازلا وتجادلا ، فقتله علىٌّ ﷺ ، وصرخ رجل من المشركين من يبارز ؟ فقال النبى ﷺ : قم يا زبير . فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب : وحيدى يا رسول الله . ليس لى سواه ؟ فقال : قم يا زبير ، فقام الزبير ، فبارز الرجل فقتله ، ثم جاء بسلبه إلى النبى ﷺ ،

فنفله إياه ، وخرجت بقية خيلهم من الخندق هاربة ، ورؤى نوفل بن عبد العزى فى جوف الخندق ، فجعل المسلمون يرمونه بالحجارة ، فقال لهم : قتلة أجمل من هذه ؟ أن ينزل أحدكم أقاتله ، فنزل إليه الزبير فقتله . وبعث المشركون إلى رسول الله ﷺ يشترون جثته بعشرة آلاف ، فقال الرسول ﷺ هو لكم : لا نأكل ثمن الموتى .

وكانت عائشة أم المؤمنين فى حصن من حصون بنى حارثة يوم الخندق ، وكان من أحرز حصون المدينة ، وكانت أم سعد بن معاذ معها فى الحصن ، ومر أمامهما سعد بن معاذ وعليه درع قصيرة ، قد خرجت منها ذراعه كلها ، فقالت له أمه : الحق يا بنى ، فقد والله تأخرت ، فرمى سعد بن معاذ بسهم ، فقطع منه العرق المهم فى الذراع .

وكانت صفية بنت عبد المطلب فى حصن حسان بن ثابت ، وكان حسان مع النساء فيه هو والصبيان ، فمر رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ، ورسول الله ﷺ والمسلمون فى نحور عدوهم يرقبونهم ، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلى النساء إن آتاهن آت ، فقال صفية : يا حسان . إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن ، وإنى والله ما آمنه على عوراتنا من وراءه من يهود ، فانزل إليه فاقتله . قال : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب . والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . فلما رأت أنه لن ينزل شدت على وسطها ، ثم أخذت عودًا من أعمدة البيت ، ثم نزلت من الحصن إلى الرجل ، فضربته بالعود حتى قتلته ، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن ، فقالت : يا حسان . انزل إليه فاسلبه ، فإنه لم يمنعى من سلبه إلا أنه رجل ، قال : ما لى بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب.

عشرون يومًا مرت ثقالا على المسلمين يكابدون فيها حر الصحراء ورمضائها وقلة الطعام والخوف والرعب حتى كانت الصلاة يفوت وقتها

وهم لا يصلون ، يحدثنا بذلك الحديث :

٤١١١ – عَنْ عَلِىٍّ ﷺ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ : « مَلأَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا كَمَا شَغَلُونَا عَنْ صَلاَةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ » .

٤١١٢ – وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ جَاءَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَ مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ جَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كِدْتُ أَنْ أُصَلِّىَ حَتَّى كَادَتِ الشَّمْسُ أَنْ تَغْرُبَ . قَالَ النَّبِىُّ ﷺ : « وَاللَّهِ مَا صَلَّيْتُهَا » فَنَزَلْنَا مَعَ النَّبِىِّ ﷺ بُطْحَانَ ، فَتَوَضَّأَ لِلصَّلاَةِ وَتَوَضَّأْنَا لَهَا ، فَصَلَّى الْعَصْرَ بَعْدَ مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا الْمَغْرِبَ .

عشرون يومًا ختمت بليلة باردة ، شديدة البرودة ، وريح عاتية ، قلعت الأوتاد ، وقطعت الحبال ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وماجت الخيل بعضها فى بعض ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، حتى قال طليحة بن خويلد الأسدى : أما محمد فقد بدأكم بالسحر ، فالنجاء النجاء .

وأدرك رسول الله ﷺ اضطراب معسكر المشركين ، فقال لأصحابه : من رجل يقوم فينظر ما فعل القوم ، ثم يرجع ؟ – يشرط له رسول الله ﷺ أن يرجع – أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة ، فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يقم أحد دعانى رسول الله ﷺ ، فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى ، فقال : يا حذيفة . اذهب ، فادخل فى القوم ، فانظر ماذا يصنعون ؟ ولا تحدثن شيئًا حتى تأتينا . قال : فذهبت ، فدخلت فى القوم ، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل ، لا تقر لهم قدرًا ولا نارًا ولا بناء ، فقام أبو سفيان ، فقال : يا معشر قريش : لينظر كل منكم من جليسه ، قال حذيفة : فأخذت بيد

الرجل الذى كان بجانبى ، فقلت : من أنت ؟ قال : فلان بن فلان .

ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش . إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الخيل والإبل ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، ثم قام إلى جمله وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه فوثب به على ثلاث ، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله ﷺ إلى ، أن لا تحدث شيئًا حتى تأينى لقتلته بسهم .

تأتينى

قال حذيفة : فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى فى كساء ، فلما رآنى أدخلنى إلى رجليه ، وطرح علىَّ طرف الكساء ، وسجد به وأنا فيه ، فلما سلم أخبرته الخبر .

وسمعت غطفان بما فعلت قريش ، فتشمروا راجعين إلى بلادهم .

وأنزل الله فى ذلك : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [(١)] وأنزل : ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [(٢)] .

وإلى هنا كانت الغزوات دفاعية ، وكان المشركون المهاجمين للمدينة وللمسلمين ، وأوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ فقال :

٤١١٠ – عن سُلَيْمَانَ بْنَ صُرَدٍ ﷺ قال : سَمِعْتُ النَّبِىَّ ﷺ يَقُولُ

---

(١) سورة الأحزاب – آية ٩ .

(٢) سورة الأحزاب – آية ٢٥ .

حِينَ أَجْلَى الأَحْزَابُ عَنْهُ : « الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَنَا ، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ » .

وفى غزوة الأحزاب عظات وعبر . نذكر منها :

- اتخاذ الأسباب ، وأخذ الحيطة والحذر ، وإعداد العدة للحماية من الأعداء ، واستخدام الوسائل المتاحة .
- استشارة الأصحاب وأهل الخبرة ، والعمل بنصيحتهم إن حصل بها اقتناع ، وليس فى ذلك ذلة تبعية . بل الحكمة تقول : لا خاب من استشار . وفيه منقبة لسلمان الفارسى ﷺ .
- غدر اليهود قديم ، وكلما عاهدوا عهدًا نقضوه ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ (1).
- ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (2) وأن ما نراه من عوارض الأحوال الجوية له حكمة ، يفيد به من يشاء ، ويضر به من يشاء .
- أن لله جنودًا يدافع بها ، لا يراها الناس ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ (3) .
- مدى ما تحمله الصحابة فى سبيل الحفاظ على نشر الدعوة الإسلامية .
- مشاركة القائد لجنده فى تحمل المشاق والصعاب ، والنزول معهم

---

(1) سورة التوبة – الآية ١٠ .

(2) سورة الحج – الآية ٣٨ .

(3) سورة المدثر – الآية ٣١ .

والكفاح كواحد منهم .

- معجزة حسية للرسول ﷺ وانهيار الحجر الصلب أمام ضربته .
- جرأة وشجاعة فرسان الصحابة ، ومنقبة عظيمة لعلى والزبير وحذيفة – رضى الله عنهم –.
- الحرب خدعة ، يرخص فيها بالكذب والتمويه والغيبة والنميمة وما فيه صلاح المسلمين ، وإرسال الجواسيس والطلائع .
- التيقظ لسلوك المنافقين، والحذر من أضرارهم وتعويقهم ومعسول أسلوبهم مع جبنهم .

ولنا معهم لقاء آخر نذكر فيه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

---

(١) سورة الحشر – الآية ١١- ١٧ .

غزوة بنى قريظة

بعد أن جلا سلام بن أبى الحقيق النضرى وحيى بن أخطب النضرى وكنانة بن أبى الحقيق النضرى من أراضى بنى النضير إلى خيبر بدءوا يجمعون ويحزبون ويكتلون أعداء الإسلام ، فخرجوا فى نفر إلى قريش بمكة ، فدعوهم إلى حرب محمد ﷺ ، وقالوا لهم : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ، فسرت قريش ونشطوا وأخذوا يستعدون ، ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان ، فدعوهم إلى حرب محمد ﷺ وتعهدوا لهم بأن يكونوا معهم عليه ، وأخبروهم أن قريشًا قد وافقوهم على ذلك ، وتعهدوا لهم بنصف تمر خيبر .

وخرج حيى بن أخطب النضرى من غطفان حتى أتى كعب بن أسد القرظى ، صاحب عقد بنى قريظة ، وعهدهم مع رسول الله ﷺ ، فقال حيى لكعب : جئتك بعز الدهر ، جئتك بقريش بقادتها وسادتها ، وجئتك بغطفان بقادتها وسادتها ، وقد تجمعوا إلى جانب أحد ، وقد عاهدونى على أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدًا ومن معه ، فقال كعب : ويحك يا حيى دعنى وما أنا عليه ، فإنى لم أر من محمد إلا صدقًا ووفاء ، فلم يزل حيى بكعب حتى نقض عهده مع محمد ، وأعلن الحرب عليه ، وانضمامه إلى الأحزاب ، قريش وغطفان .

رجع الأحزاب إلى ديارهم . ورجع رسول الله ﷺ والمسلمون إلى بيوتهم بالمدينة .

كانت نتيجة غزوة الأحزاب مكرمة من الله للمسلمين ، واضحة فى أن المشركين رجعوا بغير اختيارهم ، بل يصنع الله لرسوله ﷺ ، فكان يكبر ثلاث مرار ، ثم يقول : لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك

وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده. وزادت ثقة الرسول ﷺ بربه حتى قال :

٤١١٠ – عن سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ قال : سَمِعْتُ النَّبِىَّ ﷺ يقُولُ حِينَ أَجْلَى الأَحْزَابُ عَنْهُ : « الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَنَا ، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ » .

وعند البزار أن النبى ﷺ قال يوم الأحزاب : « لا يغزونكم بعد هذا أبدًا ، ولكن أنتم تغزونهم » وقد صدقت نبوءة النبى ﷺ ، فقد خرج بأصحابه قبل مضى عام على هذا القول معتمرين ، فصدتهم قريش عن البيت ، ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها فكان ذلك سبب فتح مكة ، ووقع الأمر كما قال صلى الله عليه وسلم .

وماذا بعد غزوة الأحزاب ؟

يقول أصحاب المغازى : لما انصرف النبى ﷺ من الخندق ، ورجع إلى المدينة خلع ملابس الحرب واغتسل واستجمر ، تبدى له جبريل عليه السلام ، فوثب مسرعًا ، فقال له :عذيرك من محارب أى أعذرك كرجل محارب وقف فى الميدان أيامًا ، قد وضعت السلاح ؟ والله ما وضعته ، اخرج إليهم . قال النبى ﷺ : فأين ؟ وإلى من أخرج ؟ فأشار جبريل إلى بنى قريظة ، إن الله يأمرك أن تسير إليهم ، فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم ، فأمر بلالا فأذن فى الناس : " من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة " وفى رواية : « لما رجع رسول الله ﷺ من الأحزاب ، وخلع ملابس الحرب ، واغتسل واستجمر تبدى له جبريل ، فوثب فزعًا ، فعزم على الناس أن لا يصلوا العصر حتى يأتوا بنى قريظة ، فلبس الناس السلاح . وتسابقوا نحو بنى قريظة ، فأوشكت الشمس على الغروب قبل أن يصليها القوم ، فقال بعضهم : لا نصلى العصر حتى نأتيهم ، فنصليها فى

ديارهم وإن فات وقتها ، لا نصلى إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ ، وقال بعضهم : بل نصليها فى وقتها وإن لم نصل إلى ديارهم ، لم يرد منا تضييعها وتأخيرها عن وقتها ، بل أراد بهذا القول الاستعجال والحث على الإسراع إلى بنى قريظة .

فذكر ذلك للنبى ﷺ ، فما عنف واحدًا من الفريقين .

ومن هنا اختلف العلماء : هل كل مجتهد مصيب ، أو المصيب واحد وله أجران ، والآخر مخطئ وله أجر واحد ، ولا يأثم واحد منهما .

يوضح القصة الحديث :

٤١١٧ - عَنْ عَائِشَةَ - رضى الله عنها - قَالَتْ : لَمَّا رَجَعَ النَّبِىُّ ﷺ مِنَ الْخَنْدَقِ وَوَضَعَ السِّلاَحَ وَاغْتَسَلَ ، أَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقَالَ : قَدْ وَضَعْتَ السِّلاَحَ وَاللَّهِ مَا وَضَعْنَاهُ ، فَاخْرُجْ إِلَيْهِمْ . قَالَ : « فَإِلَى أَيْنَ » ؟ قَالَ : هَا هُنَا ، وَأَشَارَ إِلَى بَنِى قُرَيْظَةَ ، فَخَرَجَ النَّبِىُّ ﷺ إِلَيْهِمْ .

والحديث :

٤١١٩ - عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - قَالَ : قَالَ النَّبِىُّ ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ : « لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلاَّ فِى بَنِى قُرَيْظَةَ » . فَأَدْرَكَ بَعْضُهُمُ الْعَصْرَ فِى الطَّرِيقِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لاَ نُصَلِّى حَتَّى نَأْتِيَهَا . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ نُصَلِّى ، لَمْ يُرِدْ مِنَّا ذَلِكَ ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِىِّ ﷺ فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ .

وقد استعرضنا فى غزوة الخندق نقض بنى قريظة للعهود التى كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ ، واتفاقهم مع قريش والأحزاب على حربه ، ولولا الخدعة - والحرب خدعة ليحاربوه مع الأحزاب ، ولكن الله أوقع بينهم وبينهم ، فكان عقابهم غزوهم السريع بأمر من الله تعالى .

استعمل رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم ، وسار الجيش إلى بنى قريظة ، حتى دنا من حصونهم ، وصلوا ثلاثة آلاف ، معهم ستة وثلاثون فرسًا ، وجاءهم رسول الله ﷺ ، وأحس بذلك بنو قريظة ، فتحصنوا فى حصونهم ، ورفضوا الإسلام ، وأعلنوا القتال ، فحاصرهم رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين ليلة ، فأتعبهم الحصار ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، وخذلتهم قريش وغطفان ، وأيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يقاتلهم ويهزمهم ، فنصحهم أحد زعمائهم كعب بن أسد ، قال لهم : يا معشر يهود . قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثًا ، فخذوا أيها شئتم . قالوا : وما هى ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم إنه لنبى مرسل ، وإنه الذى تجدونه فى كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم . قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدًا ، ولا نستبدل به غيره ، قال : فإذا أبيتم هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف ومجرديها من غمدها ، لم نترك وراءنا ثقلا ، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ، ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه ، وإن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء . قالوا : نقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير العيش بعدهم ؟ قال : فإن أبيتم علىّ هذه فإن الليلة ليلة السبت ، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة . قالوا : نفسد سبتنا علينا ؟ ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت ، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ . قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازمًا .

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بنى عمرو بن عوف – وكانوا حلفاء الأوس لنستشيره فى أمرنا –

فأرسله رسول الله ﷺ إليهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال ، وجهش بالبكاء أمامه النساء والصبيان ، فرقّ لهم ، فقالوا له : يا أبا لبابة . أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم - وأشار بيده إلى حلقه ، يعنى إنه الذبح .

قال أبو لبابة : فوالله مازالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أننى خنت الله ورسوله ﷺ ، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه نحو المسجد النبوى بالمدينة ، ولم يأت لرسول الله ﷺ حتى ربط نفسه فى عمود من أعمدة المسجد ، وقال : لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب الله على مما صنعت ، وأعاهد الله أن لا أطأ بنى قريظة أبدًا ، ولا يرانى أحد فى بلد خنت فيه الله ورسوله أبدًا . ونزل فيه قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (١) .

فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره - وكان قد استبطأه - قال : أما إنه لو جاءنى لاستغفرت له ، فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه .

أقام أبو لبابة مرتبطًا بعمود المسجد ست ليال ، تأتيه امرأته فى كل وقت صلاة فتحله للصلاة ، ثم يعود فيرتبط بالعمود ، وفى سحر الليلة السادسة نزلت توبة أبى لبابة على رسول الله ﷺ ، نزل فيه قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٢) . وكلمة "عسى" التى للترجى إذا قيلت من الله أفادت تحقق المرجو ، فكأنه قال : تاب الله عليهم .

---

(١) سورة الأنفال - الآية : ٢٧ .

(٢) سورة التوبة - الآية : ١٠٢

كان رسول الله ﷺ فى بيت أم سلمة – رضى الله عنها–.

قالت أم سلمة – رضى الله عنها -: فسمعت رسول الله ﷺ من السحر يضحك قلت : مم تضحك يا رسول الله ؟ أضحك الله سنك. قال: تيب على أبى لبابة . قالت : قلت : أفلا أبشره يا رسول الله ؟ قال : بلى . إن شئت . فقامت على باب حجرتها – وذلك قبل أن يضرب الحجاب على أمهات المؤمنين – فقالت : يا أبا لبابة . أبشر . فقد تاب الله عليك . فثار الناس إليه ليطلقوه ، فقال : لا ، والله ، حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده ، فلما مر عليه رسول الله ﷺ خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه .

أما بنو قريظة فلما أصبحوا بعد لقائهم بأبى لبابة نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فتواثبت الأوس أن يهبهم لهم ليحكموا فيهم بما يرون . وقالوا : يا رسول الله . إنهم كانوا موالينا ، وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد فعلت – كان رسول الله ﷺ قد حاصر يهود بنى قينقاع ، فنزلوا على حكمه ، فطلب عبد الله بن أبى أن يهبهم له ، فحكم بجلائهم ، واستبقى دماءهم . فأراد الأوس أن يهبهم مواليهم بنى قريظة فوهبهم إياهم وقال رسول الله ﷺ : يا معشر الأوس . ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى . قال رسول الله ﷺ : فذاك إلى سعد بن معاذ .

سعد بن معاذ ﷺ

أسلم على يد مصعب بن عمير فيما بين بيعة العقبة الأولى والثانية ، وكان سعد قد أصيب فى الخندق بسهم ، فعاش بعد ذلك شهرًا ، حتى حكم فى بنى قريظة ، وهو سيد الأوس ، لما أسلم قال لبنى عبد الأشهل : كلام رجالكم ونسائكم علىَّ حرام حتى تسلموا ، فأسلموا ، فكان من أعظم الناس بركة فى الإسلام .

وكان لامرأة من أسلم اسمها رفيدة خيمة فى مسجد رسول الله ﷺ ، تداوى فيها جرحى المعارك ، وكان رسول الله ﷺ قد قال لهم : اجعلوا سعدا فى خيمة رفيدة ، حتى أعوده من قريب . فلما عين حكمًا جاء به قومه على حمار قد جهزوا ظهره بالطيب اللين . جاءوا به من مسجد المدينة إلى مسجد الرسول ﷺ الذى أقامه فى ديار بنى قريظة مدة حصارهم ، جاءوا به وهم يرجونه أن يحسن إلى مواليه فى حكمه ، كما أحسن ابن أبى فى مواليه .

فلما وصل سعد إلى رسول الله ﷺ قال لهم رسول الله ﷺ : قوموا إلى سيدكم . يعظم من شأنه ، ويتوج اختياره حكمًا . فقال سعد لبنى قريظة : أترضون حكمى ؟ قالوا : نعم . قال للمسلمين : أترضون حكمى ؟ قالوا : نعم . قال : فإنى أحكم فيهم بقتل مقاتلتهم – أى من بلغ وحارب – ، وأحكم بسبى نسائهم وذرياتهم ، وأن تقسم أموالهم بين المسلمين . قال صلى الله عليه وسلم : يا سعد . حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبع سموات . وقد اختلف فى عددهم بين الأربعمائة والسبعمائة مقاتل . تقصُّ علينا الأحاديث الآتية هذه القصة :

٣٢٤٩ – عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ – رضى الله عنهما – قَالَ : أُتِىَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِثَوْبٍ مِنْ حَرِيرٍ ، فَجَعَلُوا يَعْجَبُونَ مِنْ حُسْنِهِ وَلِينِهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِى الْجَنَّةِ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا » .

٣٨٠٢ – وعنه ﷺ قال: أُهْدِيَتْ لِلنَّبِىِّ ﷺ حُلَّةُ حَرِيرٍ ، فَجَعَلَ أَصْحَابُهُ يَمَسُّونَهَا وَيَعْجَبُونَ مِنْ لِينِهَا فَقَالَ « أَتَعْجَبُونَ مِنْ لِينِ هَذِهِ لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ خَيْرٌ مِنْهَا » . أَوْ أَلْيَنُ .

٥٨٣٦ – وعنه ﷺ قَالَ أُهْدِىَ لِلنَّبِىِّ ﷺ ثَوْبُ حَرِيرٍ ، فَجَعَلْنَا نَلْمُسُهُ، وَنَتَعَجَّبُ مِنْهُ ، فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ : « أَتَعْجَبُونَ مِنْ هَذَا » ؟ قُلْنَا : نَعَمْ . قَالَ:

« مَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِى الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ هَذَا » .

٦٦٤٠ – وعَنه ﷺ قَالَ : أُهْدِىَ إِلَى النَّبِىِّ ﷺ سَرَقَةٌ مِنْ حَرِيرٍ ، فَجعَلَ النَّاسُ يَتَدَاوَلُونَهَا بَيْنَهُمْ ، وَيَعْجَبُونَ مِنْ حُسْنِهَا وَلِينِهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَتَعْجَبُونَ مِنْهَا » ؟ قَالُوا : نَعَمْ . يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَمَنَادِيلُ سَعْدٍ فِى الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْهَا » .

٢٦١٥ – وعن أَنَسٍ ﷺ قَالَ : أُهْدِىَ لِلنَّبِىِّ ﷺ جُبَّةُ سُنْدُسٍ ، وَكَانَ يَنْهَى عَنِ الْحَرِيرِ ، فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْهَا فَقَالَ : « وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِى الْجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا ».

٣٩٠١ – وعَنْ عَائِشَةَ – رضى الله عنها – أَنَّ سَعْدًا قَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَىَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ مِنْ قَوْمٍ كَذَّبُوا رَسُولَكَ ﷺ وَأَخْرَجُوهُ – إنى أحب أن أقاتل قريشًا حبًا فى رسولك وثأرًا له، لكنى أظن أن الحرب بيننا وبينهم ستتوقف – اللَّهُمَّ فَإِنِّى أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ .

٤١٢٢ – وعَنْ عَائِشَةَ – رضى الله عنها – قَالَتْ : أُصِيبَ سَعْدٌ يَوْمَ الْخَنْدَقِ ، رَمَاهُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ حِبَّانُ ابْنُ الْعَرِقَةِ – وهو حبان ابن قيس من بنى معيص بن عامر بن لؤى ، ولم يكن فى غزوة الخندق حرب التحام ، وكل ما كان الترامى المتفرقة بالسهام – رَمَاهُ فِى الأَكْحَلِ – أصاب السهم عرقًا فى وسط الذراع – فَضَرَبَ النَّبِىُّ ﷺ خَيْمَةً فِى الْمَسْجِدِ – وأنزله فيها – لِيَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ ، فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْخَنْدَقِ وَضَعَ السِّلَاحَ وَاغْتَسَلَ ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام وَهْوَ يَنْفُضُ رَأْسَهُ مِنَ الْغُبَارِ ، فَقَالَ : قَدْ وَضَعْتَ السِّلَاحَ ؟ وَاللَّهِ مَا وَضَعْتُهُ ، اخْرُجْ إِلَيْهِمْ . قَالَ النَّبِىُّ ﷺ : « فَأَيْنَ » . فَأَشَارَ إِلَى بَنِى قُرَيْظَةَ ، فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ – والمسلمون وحاصروهم ، فاستسلموا – فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ – أى على حكم

الرسول ﷺ - فَرَدَّ الْحُكْمَ إِلَى سَعْدٍ - فارتضوه ؛ لأنه كان حليفهم ، فجيء به من الخيمة على حمار ، فقيل له : إن هؤلاء ارتضوا حكمك فيهم - قَالَ : فَإِنِّى أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ الْمُقَاتِلَةُ ، وَأَنْ تُسْبَى النِّسَاءُ وَالذُّرِّيَّةُ ، وَأَنْ تُقْسَمَ أَمْوَالُهُمْ .

وعَنْ عَائِشَةَ - رضى اله عنها - أَنَّ سَعْدًا قَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَىَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ مِنْ قَوْمٍ كَذَّبُوا رَسُولَكَ ﷺ وَأَخْرَجُوهُ . اللَّهُمَّ فَإِنِّى أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ الْحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ، فَإِنْ كَانَ بَقِىَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَىْءٌ ، فَأَبْقِنِى لَهُ حَتَّى أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ ، وَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الْحَرْبَ فَافْجُرْهَا - فافجر جرحتى - وَاجْعَلْ مَوْتَتِى فِيهَا . فَانْفَجَرَتْ مِنْ لَبَّتِهِ - موضع القلادة من الصدر وكان الورم قد امتد من الذراع إلى الصدر - فَلَمْ يَرُعْهُمْ وَفِى الْمَسْجِدِ خَيْمَةٌ مِنْ بَنِى غِفَارٍ إِلاَّ الدَّمُ يَسِيلُ إِلَيْهِمْ فَقَالُوا يَا أَهْلَ الْخَيْمَةِ : مَا هَذَا الَّذِى يَأْتِينَا مِنْ قِبَلِكُمْ ؟ فَإِذَا سَعْدٌ يَغْذُو جُرْحُهُ دَمًا ، فَمَاتَ مِنْهَا رضى الله عنه .

٤١٢١ - وعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ ﷺ قال : نَزَلَ أَهْلُ قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ، فَأَرْسَلَ النَّبِىُّ ﷺ إِلَى سَعْدٍ ، فَأَتَى عَلَى حِمَارٍ ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْمَسْجِدِ قَالَ لِلأَنْصَارِ : « قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ - أَوْ - خَيْرِكُمْ » . فَقَالَ : « هَؤُلاَءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ » . فَقَالَ : تَقْتُلُ مُقَاتِلَتَهُمْ ، وَتَسْبِى ذَرَارِيَّهُمْ . قَالَ : « قَضَيْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ » . وَرُبَّمَا قَالَ : « بِحُكْمِ الْمَلِكِ » .

وعند الترمذى : عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : لَمَّا حُمِلَتْ جَنَازَةُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ قَالَ الْمُنَافِقُونَ : مَا أَخَفَّ جَنَازَتَهُ ؟ وَذَلِكَ لِحُكْمِهِ فِى بَنِى قُرَيْظَةَ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِىَّ ﷺ فَقَالَ : « إِنَّ الْمَلاَئِكَةَ كَانَتْ تَحْمِلُهُ » .

وفى الحديث :

٣٨٠٣ - عَنْ جَابِرٍ ﷺ قال : سَمِعْتُ النَّبِىَّ ﷺ يَقُولُ : « اهْتَزَّ

الْعرْشُ لِموْتِ سعْدِ بْنِ مُعَاذٍ » .

ونزل فى بنى قريظة قول الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ حصونهم ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ ﴾[1] .

---

(١) سورة الأحزاب – الآية : ٢٦ .

الحديبية وبيعة الرضوان

وفى مستهل ذى القعدة سنة ست من الهجرة خرج رسول الله ﷺ من المدينة ومعه ألف وأربعمائة من أصحابه ، يريدون العمرة ، لا يريدون قتالا ، وأخذوا معهم الهدى للحرم ، فلما أتى ذا الحليفة قلدوا الهدى ووضعوا عليه علامة أنه هدى ، وأحرموا بالعمرة .

وبعث رسول الله ﷺ بالعيون والجواسيس يأتونه بخبر قريش وتحركاتهم حين يسمعون الخبر ، وبعثت قريش عيونها وجواسيسها يأتونهم بأخبار محمد ﷺ وأصحابه .

وسار النبى ﷺ حتى بلغ غدير الأشطاط ، فأتاه عينه يقول : إن قريشًا قد جمعوا لك جموعًا ، وقد جندوا لك الأحابيش – وهم مقاتلون من غير قريش ، يستأجرون لهذه المهمة – أشبه بالجنود المرتزقة فى عصرنا – وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك من الوصول إليه . فقال : أشيروا أيها الناس علىَّ . نحن الآن بجوار مضارب قريش ومناصريهم وفيها عيالهم ونساؤهم وأموالهم . أترون أن نميل إلى عيالهم وذراريهم ؟ فإن يأتونا كان الله عز وجل قد قطع طرفًا من المشركين ، وإلا تركناهم محزونين على نسائهم وأولادهم وأموالهم . قال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله . خرجت عامدًا لهذا البيت ، لا تريد قتل أحد ، ولا حرب أحد ، فتوجه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه . قال صلى الله عليه وسلم : امضوا على اسم الله .

وسار المسلمون نحو مكة ، وفى بعض الطريق علم صلى الله عليه وسلم أن قريشًا أرسلت عيونًا ، وأرسلت لذلك خالد بن الوليد مع مائتى فارس ، فأشار صلى الله عليه وسلم على أصحابه بعدم الالتقاء بهم ، فليس مع المسلمين خيل . وأشار عليهم بأخذ الطريق غير المشهور ، لكن خالدًا

وفريقه رأوا كثرة جيش المسلمين وما أثاروا من تراب وغبار فأسرعوا إلى قريش ينذرونهم .

وسلك رسول الله ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم طريقًا وعرًا هبط بهم على وادى الحديبية ، وبركت بالنبى ﷺ راحلته ، فقال الناس : حل . حل . أى قومى وتحركى . فلم تقم ، فقال الناس : غضبت الناقة ، فعصت الأوامر ونشزت ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما غضبت وما نشزت وما عصت ، وما ذلك لها بخلق ، ولكنها بركت بأمر من الله تعالى .

واستمرت باركة بأمر الله تعالى ، لا تستطيع خلافه ، منعها من القيام والاستمرار فى التقدم ما منع فيل أبرهة من استمرار التقدم نحو مكة.

وأحس صلى الله عليه وسلم بأن الإرادة الإلهية تسلمت زمام الأمور، وأن اختياره وقراره تابع لأمر الله وقضائه ، فقال لأصحابه : لا تسألنى قريش شيئًا إلا أجبتهم إليه ، ولا يطلبون منى مطلبًا ليس محرمًا فى شريعتى إلا أعطيتهم إياه ، ثم زجر الناقة فقامت وقال لأصحابه : انزلوا . قالوا : يا رسول الله . ما بالوادى من ماء ننزل عليه ؟ قال : انزلوا . فنزلوا ، وعدل عنهم إلى طرف الحديبية عند حفرة فيها قليل من الماء فنزل، وكانت قريش قد سبقت إلى ماء الحديبية ، فنزلت عليه .

وكان الحر شديدًا ، وكان الصحابة يتلمسون من الماء القليل قطرات، وشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فانتزع سهمًا من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فى بئر الحديبية ، ففاض ماؤها ، وامتلأ غورها ، فشربوا ، وسقوا دوابهم ، وملأوا أوعيتهم ، وانصرفوا عنه .

فبينما هم كذلك إذ جاءهم بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه خزاعة ، وكانت خزاعة مصدر نصح ، وخزانة حرص على رسول الله ﷺ ومن معه ، مسلمهم ومشركهم ، لا يخفون عليه شيئًا كان بمكة . قال بديل

لرسول الله ﷺ : لقد غزوت ولا سلاح معك ، فقال صلى الله عليه وسلم : لم نجئ لقتال . قال بديل : إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى وسادة قريش قد سبقوا إلى النزول على مياه الحديبية ، وحرموا المسلمين منها ، ومعهم النوق ذات اللبن ، يتزودون من ألبانها ، ومعهم نساؤهم وأولادهم ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ، فقال رسول الله ﷺ : إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكنا جئنا معتمرين ، وإن قريشًا قد نهكتها الحرب ، وأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم مدة ، ويخلوا بينى وبين الناس ، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد استراحوا ، وإن هم أبوا الهدنة فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد عنقى عن رأسى ، ولينفذن الله أمره .

فقال بديل : سأبلغهم ما تقول – فانطلق حتى أتى قريشًا فقال : إنا جئناكم من عند هذا الرجل ، وسمعناه يقول قولا ، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا . فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء ، وقال ذوا الرأى منهم : هات ما سمعته يقول : قال : سمعته يقول : كذا وكذا ، فحدثهم بما قال النبى ﷺ . فقام عروة بن مسعود فقال : يا قوم . أنتم الوالد ، وأنا الولد ، فهل تتهمونى ؟ قالوا : لا . قال : ألستم تعلمون أننى دعوت أهل عكاظ أن يناصروكم ، فلما أبو جئتكم بأهلى وأولادى ومن أطاعنى ؟ قالوا : بلى . قال : فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد ، اقبلوها ودعونى آته . قالوا : ائته ، فآتاه ، فجعل يكلم النبى ﷺ فقال له النبى ﷺ نحوًا من قوله لبديل ، فقال عروة : يا محمد . أرأيت إن غلبت قومك واستأصلتهم فلن تكون محل مدح وثناء . هل سمعت بأحد من العرب استأصل قومه ؟ وإن تكن الأخرى وغلبوك هلكت وهلك أصحابك ، وما أظن أن يقع غيرها ، فإنى أرى حولك وجوهًا من أشواب الناس وفقرائهم وأخلاطهم ،

خليقين بأن يفروا من المعارك ويدعوك ، فقال له أبو بكر : امصص بـظر اللات ، أى ارضع فرج إلهك اللات ، أنحن نفر عنه وندعه ؟ فقال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . قال : أما والذى نفسى بيده. لولا يد كانت لك عندى لم أجزك بها لأجبتك بشدة ، وجعل يكلم النبى ﷺ ، فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبى ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر .

فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله ﷺ ضرب المغيرة يده بنعل السيف وقال له : أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ ، فرفع عروة رأسه ، وقال : من هذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة ، فقال له : يا غدر . ألست إلى الآن أسعى فى علاج غدرتك ؟ وكان المغيرة قد صحب قومًا فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم . فقال النبى ﷺ : أما الإسلام فأقبله منك ، وأما المال فلست منه فى شيء ، ولا أتعرض له ، ولا أتحمل مسئوليته ، فإنه أخذ غدرًا .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبى ﷺ بعينيه . قال : فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وتسابقوا فى تنفيذه ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على الحصول على شيء من ماء وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر ، وما يفتحون أعينهم فى مواجهته تعظيمًا له ، فرجع عروة إلى أصحابه فقال : يا قوم . والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى . والله ما رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه مثل ما يعظم أصحاب محمد محمدًا ﷺ ، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ، فقال رجل من كنانة : دعونى آته . فقالوا : ائته . فلما أشرف على النبى ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ هذا فلان ،

وهو من قوم يعظمون البدن والهدى إلى الكعبة ، فابعثوها له ، وأثيروها تتحرك وتتجمع أمامه ، وتكثر فى عينه ، فبعثوها له ، واستقبله الناس يلبون ، فلما رأى ذلك قال : سبحان الله . ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البدن قد قلدت وأشعرت ، فما أرى أن يصدوا عن البيت ، فقام رجل منهم يقال له : مكرز بن حفص . فقال : دعونى آته . فقالوا : ائته . فلما أشرف عليهم قال النبى ﷺ : هذا مكرز ، وهو رجل فاجر ، فجعل يكلم النبى ﷺ ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو فقال النبى ﷺ : قد سهل لكم من أمركم ، فقال للنبى ﷺ : هات اكتب بيننا وبينك كتابًا ، فدعا النبى ﷺ الكاتب ، وكانْ عليًا ﷺ ، فقال النبى ﷺ : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل : أما الرحمن . فوالله ما أدرى ما هى ؟ ولكن اكتب باسمك اللهم ، كما كنت تكتب ، فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم . فقال النبى ﷺ : اكتب باسمك اللهم .

ثم قال : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله . فقال سهيل : والله لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله . فقال النبي ﷺ : والله إنى لرسول الله ، وإن كذبتمونى ، اكتب محمد بن عبد الله . على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به . فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ، وإنكم دخلتم مكة رغم أنوفنا ، ولكن ذاك من العام المقبل ، فكتب ، فقال سهيل : وعلى أنه لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا . فقال المسلمون : سبحان الله ؟ كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلمًا ؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو ، دخل يتلبط ويتخبط فى قيوده ، وكان أبوه قد أوثقه وقيده وحبسه حين أسلم ، فأفلت من السجن ،

وتنكب الطريق ، وركب الجبال حتى هبط على المسلمين فـــى الحديبيـــة ، ورمى إليهم بنفسه ، ففرحوا به ، وتلقوه بالترحيب والتكبير . وكان له أخ اسمه عبد الله ، أسلم أيضًا ، وكتم إسلامه ، وحضر بدرًا مع المشركين . ثم فر منهم ، وانضم إلى المسلمين . ثم كان مع المسلمين فى الحديبية .

فقال سهيل : هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلىّ . وقام إلى أبى جندل يضرب وجهه ويأخذ بتلابيبه ويخنقه .

فقال النبى ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد ، ولم ننته من المعاهدة ، ولم نوقع عليها ؟ قال : فوالله – إذن – لم أصالحك على شـــيء أبـــدًا . قـــال النبى ﷺ : فأجزه لى ، وامنحنى إياه . قال : ما أنا بمجيزه لك . قال : بلى فافعل . قال : ما أنا بفاعل . قال مكرز : بل قد أجزناه لك . وكان مكـــرز ممن فوض فى الصلح مع سهيل ، ومعهما حويطب بـــن عبـــد العـــزى ، ورفض سهيل شفاعة مكرز ، فقال النبى ﷺ لأبى جندل : اصبر واحتسب فإنا لا نغدر ، وإن الله جاعل لك فرجًا ومخرجًا . قال أبو جندل : يا معشر المسلمين . أرد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا ؟ ألا ترون ما قد لقيـــت ؟ فتمسح به عمر ﷺ ، يلوح له بسيفه ، وكأنه يشير عليه أن يأخذ سيف عمر فيضرب به أباه فيقتله ، يقول عمر لأبى جندل إنهم مشركون ، وإنمـــا دم أحدهم كدم كلب ، ويلوح بسيفه ، ويدنى قائمة السيف منه ، لكن أبا جنـــدل بخل بأبيه ، فأخذه مكرز وحويطب فأدخلاه فسطاطًا ، وكفا أباه عنه .

اشتمل الصلح على أن توضع الحرب بينهما عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم بعضًا ، وأن يرجع محمد عامهم هذا ، فلا يدخل مكة عليهم، فإذا كان عام قادم خرجوا عن مكة فدخلها محمد وأصحابه ، فأقاموا بهـــا ثلاثًا ، معهم سلاح الراكب ، السيوف فى جرابها ، ومن أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهـــدهم

دخل فيه .

والمحقق فى هذه الشروط بعقلية بشرية يراها مجحفة بالمسلمين ، ظالمة لهم ، لا تناسب عزتهم وكرامتهم وقوتهم ، لولا أنها من عند الله ، وفى حكمه وأنها قضاء ما تمت على هذا النحو .

لذا وجدنا كثيرًا من الصحابة لا يرضونها ولا يقرونها ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ﷺ إذ أتى نبى الله ﷺ فقال : ألست نبى الله حقًا ؟ قال بلى . قال : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قال : فلمَ نعطِى الدنية فى ديننا إذن ؟ قال : إنى رسول الله ولستِ أعصيه ، وهو ناصرى ، قال : أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به ؟ قال : بلى . أفأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ قال عمر : لا . قال : فإنك آتيه ومطوف به . قال عمر : فأتيت أبا بكر ، فقلت : يا أبا بكر . أليس هذا نبى الله حقًّا؟ قال : بلى . قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قال: فلمَ نعطِى الدنية فى ديننا إذن؟ قال : أيها الرجل . إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه وحبله ، فوالله إنه على الحق . قال : أليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : بلى . أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قال : لا . قال : فإنك آتيه فمطوف به .

فلما لان بعضهم لبعض فى قبول الصلح رمى رجل من المشركين رجلا من الفريق الآخر فتصايح الفريقان . وارتهن كل من الفريقين من عندهم ، فارتهن المشركون عثمان ومن آتاهم من المسلمين ، وارتهن المسلمون سهيل بن عمرو ومن معه ، وأشيع أنهم قتلوا عثمان ﷺ وكان عثمان ﷺ قد ذهب يفاوضهم ، بعد أن اعتذر عمر ﷺ عن مفاوضتهم ، لقد كان أهل مكة يحبون عثمان لدرجة أنه بعد أن بلغهم رسالة النبى ﷺ عرضوا عليه أن يطوف بالبيت ، فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به

رسول الله ﷺ ، فاحتبسته قريش ، ودعا رسول الله ﷺ إلى البيعة ، فبايعوه تحت الشجرة على أن لا يفروا ، وتأخر عمر رضي الله عنه فى البيعة عن ابنه عبد الله ، لتأخر علمه بها ، كما يحدثنا بذلك الحديثان :

٤١٨٦ - عَنْ نَافِعٍ قَالَ : إِنَّ النَّاسَ يَتَحَدَّثُونَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ أَسْلَمَ قَبْلَ عُمَرَ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، وَلَكِنْ عُمَرُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أرسل عبد اللَّهِ إِلَى فرسٍ لَهُ عِنْدَ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ يأْتِى بِهِ لِيُقَاتِلَ عَلَيْهِ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُبَايِعُ عِنْدَ الشَّجَرَةِ ، وَعُمَرُ لا يَدْرِى بِذَلِكَ ، فَبَايَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى الْفَرَسِ ، فَجَاءَ بِهِ إِلَى عُمَرَ ، وَعُمَرُ يَسْتَلْئِمُ لِلْقِتَالِ ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُبَايِعُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ - قَالَ - فَانْطَلَقَ فَذَهَبَ مَعَهُ حَتَّى بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَهِىَ الَّتِى يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ أَسْلَمَ قَبْلَ عُمَرَ .

٤١٨٧ - وعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - أَنَّ النَّاسَ كَانُوا مَعَ النَّبِىِّ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ ، تَفَرَّقُوا فِى ظِلالِ الشَّجَرِ ، فَإِذَا النَّاسُ مُحْدِقُونَ بِالنَّبِىِّ ﷺ فَقَالَ : يَا عَبْدَ اللَّهِ ، انْظُرْ مَا شَأْنُ النَّاسِ ؟ قَدْ أَحْدَقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَهُمْ يُبَايِعُونَ ، فَبَايَعَ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى عُمَرَ فَخَرَجَ فَبَايَعَ .

وبلغ خبر البيعة المشركين فأرعبهم الله ، فأرسلوا من كان مرتهناً ، ودعوا إلى الموادعة ، وأنزل الله سبحانه تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ ﴾ (١).

ونزل قوله تعالى : ﴿ لَّقَدۡ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ

---

(١) سورة الفتح - الآية : ٢٤ .

﴿ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴾ [1].

واشتهرت هذه الشجرة بشجرة الرضوان ، وأصبح المسلمون يعتزون بها ويقدسونها ويزورونها ويتبركون بها ، فعميت عليهم ، وكان الحديث :

٤١٦٢ – عَنْ سَعيد بْن الْمُسَيَّب عَنْ أَبيه قَالَ : لَقَدْ رَأَيْتُ الشَّجَرَةَ ، ثُمَّ أَتَيْتُها بعْدُ فلمْ أعْرفْها .

٤١٦٣ – وعَنْ طَارقِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ : انْطَلَقْتُ حاجًّا فَمَرَرْتُ بِقَوْمٍ يُصَلُّونَ قُلْتُ : ما هَذَا الْمَسْجِدُ ؟ قَالُوا : هَذِهِ الشَّجَرَةُ ، حَيْثُ بَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ . فَأَتَيْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ سَعِيدٌ : حَدَّثَنِى أَبِى أَنَّهُ كَانَ فِيمَنْ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ نَسِينَاهَا ، فَلَمْ نَقْدِرْ عَلَيْهَا . فَقَالَ سَعِيدٌ : إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ يَعْلَمُوهَا وَعَلِمْتُمُوهَا أَنْتُمْ ؟ فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ .

٤١٦٤ – عَنْ سَعِيد بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ كَانَ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَرَجَعْنَا إِلَيْهَا الْعَامَ الْمُقْبِلَ فَعَمِيَتْ عَلَيْنَا .

وكما ثار عمر ﷺ ثار نفسيًا كثير من الصحابة ، ولا نبالغ إذا قلنا : إن جميعهم لم يكن راضيًا عن المعاهدة ، ويصور هذه المشاعرَ الحديث :

٤١٨٩ – عن أَبى وَائلٍ قال : لَمَّا قَدمَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ منْ صِفِّينَ أَتَيْنَاهُ نَسْتَخْبِرُهُ فَقَالَ : اتَّهِمُوا الرَّأْىَ ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنِى يَوْمَ أَبِى جَنْدَلٍ وَلَوْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرُدَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَمْرَهُ لَرَدَدْتُ ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، وَمَا وَضَعْنَا أَسْيَافَنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا لأَمْرٍ يُفْظِعُنَا إِلاَّ أَسْهَلْنَ بِنَا إِلَى أَمْرٍ نَعْرِفُهُ قَبْلَ هَذَا الأَمْرِ ، مَا نَسُدُّ مِنْهَا خُصْمًا إِلاَّ انْفَجَرَ عَلَيْنَا خُصْمٌ مَا نَدْرِى كَيْفَ نَأْتِى لَهُ ؟ .

---

(١) سورة الفتح – الآية : ١٨ .

كما يعطى صورة واضحة للموقف أن النبى ﷺ لما فرغ من كتابة العهد قال لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا . فما قام منهم أحد . كررها ثلاثا ، فما قام منهم أحد .

فدخل مغضبًا على زوجه أم سلمة – وكانت عاقلة حكيمة – فقال لها : كاد المسلمون أن يهلكوا ، آمرهم بالأمر فلا يطيعون . فقالت : يا نبى الله . إن الناس دخلهم حزن ونكد من الصلح . فإن كنت تريد أن ينفذوا أمرك فاخرج ، ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة ، ثم انحر بدنك ، وادع حالقك فليحلقك ، فخرج صلى الله عليه وسلم ففعل ، فقاموا ينحرون بدنهم ، ويحلق بعضهم بعضًا .

وبدأت رحلة العودة إلى المدينة ، ورسول الله ﷺ منشرح الصدر للصلح الذى تم ، وكبار الصحابة وجمهورهم منقبضو الصدر لما دخل عليهم من شروط لا تحقق طموحاتهم ، ولا تستجيب لعزتهم وكرامتهم ، وفى الطريق نزلت سورة الفتح ، وكان الحديث :

٤١٧٧ – **عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَسِيرُ فِى بَعْضِ أَسْفَارِهِ ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَسِيرُ مَعَهُ لَيْلاً ، فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَنْ شَىْءٍ فَلَمْ يُجِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا عُمَرُ ، نَزَرْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، كُلُّ ذَلِكَ لاَ يُجِيبُكَ . قَالَ عُمَرُ : فَحَرَّكْتُ بَعِيرِى ثُمَّ تَقَدَّمْتُ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ ، وَخَشِيتُ أَنْ يَنْزِلَ فِىَّ قُرْآنٌ ، فَمَا نَشِبْتُ أَنْ سَمِعْتُ صَارِخًا يَصْرُخُ بِى – قَالَ – فَقُلْتُ : لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ فِىَّ قُرْآنٌ . وَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ : « لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَىَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِىَ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ**

فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾ [1] » .

والناس يظنون أن المراد هنا من الفتح فتح مكة ، وليس كذلك ، بل الفتح المبين الأسس والشروط والمعاهدة التى قام عليها فتح مكة ، يصرح بذلك البراء بن عازب ﷺ إذ يقول :

٤١٥٠ – عَنِ الْبَرَاءِ ﷺ قَالَ : تَعُدُّونَ أَنْتُمُ الْفَتْحَ فَتْحَ مَكَّةَ ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا ، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ . كُنَّا مَعَ النَّبِىِّ ﷺ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً ، وَالْحُدَيْبِيَةُ بِئْرٌ فَنَزَحْنَاهَا ، فَلَمْ نَتْرُكْ فِيهَا قَطْرَةً ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِىَّ ﷺ فَأَتَاهَا ، فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِهَا ، ثُمَّ دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ مَضْمَضَ وَدَعَا ، ثُمَّ صَبَّهُ فِيهَا فَتَرَكْنَاهَا غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ إِنَّهَا أَصْدَرَتْنَا مَا شِئْنَا نَحْنُ وَرِكَابَنَا . – أى رجعتنا عنها وقد روينا –.

وعن أبى بكر ﷺ قال : ما كان فتح فى الإسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد ﷺ وربه ، والعباد يعجلون ، والله لا يعجل لعجلة العباد ، حتى تبلغ الأمور ما أراد .

ويقول الإمام الزهرى : ما فتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وآمن الناس كلم بعضهم بعضًا ، والتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم يكن أحد فى الإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه .

ولقد دخل فى تينك السنتين مثل ما كان دخل فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر .

وليس أدل على ذلك من أن المسلمين كانوا فى الحديبية حوالى ألف وخمسائة ، وكانوا فى فتح مكة عشرة آلاف .

---

(١) سورة الفتح – الآية : ١ .

نظرة فحص وتحقيق فى صلح الحديبية ، وما ترتب عليه من صالح للإسلام :

يقول الله تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وتحققت هذه النتيجة من شروط صلح الحديبية فى الصور الآتية :

أولا : كان هذا الصلح أول اعتراف من المشركين بمعاهدة الند للند ، له حقوق ، وعليه واجبات ، وكان لذلك أثر كبير لاتساع نفوذ الإسلام ، وأثر كبير فى نفوس المسلمين وحقهم فى زيارة البيت آمنين معتمرين .

ثانيًا : كان شرط الصلح هدنة ، توضع فيها الحرب بين الفريقين عشر سنين ، وإن كانت فعلا قد اقتصرت على سنة واحدة ، انصرف فيها المسلمون إلى الدعوة للإسلام ، وكاتب النبى ﷺ فيها الملوك والأمراء . وشرح لهم فيها قواعد الإسلام وأصوله ، ودعاهم إليه ، وأهم هذه الكتب كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ، ويرويه البخارى فى الحديث :

٧ - **عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ : إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِى رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ - وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّأْمِ - فِى الْمُدَّةِ الَّتِى كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ** - أعطاهم مدة ومهلة - **فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فِى مَجْلِسِه ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِه فَقَالَ : أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِى يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِىٌّ ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا . فَقَالَ : أَدْنُوهُ مِنِّى ، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِه . ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِه : قُلْ لَهُمْ إِنِّى سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ ، فَإِنْ كَذَبَنِى فَكَذِّبُوهُ . فَوَاللَّهِ لَوْلَا**

---

(١) سورة البقرة - الآية : ٢١٦ .

الحياءُ منْ أنْ يأثِرُوا – ويأخذوا – عليَّ كذبًا لكذبْتُ عنْهُ ، ثُمَّ كانَ أوَّلَ ما سألنى عنْهُ أنْ قالَ : كيفَ نسبُهُ فيكُمْ ؟ قُلْتُ : هُوَ فينا ذُو نسب . قالَ : فهلْ قالَ هذا القوْلَ منكُمْ أحدٌ قطُّ قبْلَهُ ؟ قُلْتُ : لا . قالَ : فهلْ كانَ منْ آبائه منْ ملك ؟ قلْتُ : لا . قالَ : فأشْرافُ النّاس يتّبعُونهُ أمْ ضُعفاؤُهُمْ ؟ فقلْتُ : بلْ ضُعفاؤُهمْ . قالَ : أيزيدُونَ أمْ ينقُصُون؟ قلْتُ : بلْ يزيدُونَ . قالَ : فهلْ يرْتدُّ أحدٌ منهُمْ سخْطةً لدينه بعْد أنْ يدخُلَ فيه ؟ قلْتُ : لا . قالَ : فهلْ كُنْتُمْ تتّهمُونهُ بالْكذب قبْلَ أنْ يقُولَ ما قالَ ؟ قُلْتُ : لا . قالَ : فهلْ يغْدرُ ؟ قُلْتُ : لا ، ونحْنُ منْهُ فى مُدّةٍ لا نَدْرى ما هُوَ فاعلٌ فيها . قالَ : ولمْ تُمْكنّى كلمةٌ أُدْخلُ فيها شيْئًا غيْرُ هذه الْكلمة . قالَ : فهلْ قاتلْتُمُوهُ ؟ قُلْتُ : نعمْ . قالَ : فكيْفَ كانَ قتالُكُمْ إيّاهُ ؟ قُلْتُ : الْحرْبُ بيْننا وبيْنَهُ سجالٌ ، ينالُ منّا وننالُ منْهُ . قالَ : ماذا يأْمُرُكُمْ ؟ قُلْتُ : يقُولُ اعْبُدُوا اللّهَ وحْدَهُ ، ولا تُشْركُوا به شيْئًا ، واتْرُكُوا ما يقُولُ آباؤُكُمْ ، ويأْمُرُنا بالصّلاة والصّدْق والْعفاف والصّلة . فقالَ للتّرْجُمان : قُلْ لهُ سألْتُكَ عنْ نسبه ، فذكرْتَ أنّهُ فيكُمْ ذُو نسب ، فكذلكَ الرُّسُلُ تُبْعثُ فى نسب قوْمها ، وسألْتُكَ هلْ قالَ أحدٌ منكُمْ هذا الْقوْلَ ؟ فذكرْتَ أنْ لا ، فقُلْتُ : لوْ كانَ أحدٌ قالَ هذا الْقوْلَ قبْلهُ لقُلْتُ رجُلٌ يأْتسى بقوْل قيلَ قبْلهُ ، وسألْتُكَ هلْ كانَ منْ آبائه منْ ملك ؟ فذكرْتَ أنْ لا ، قُلْتُ : فلوْ كانَ منْ آبائه منْ ملك قُلْتُ رجُلٌ يطْلُبُ مُلْكَ أبيه ، وسألْتُكَ هلْ كُنْتُمْ تتّهمُونهُ بالْكذب قبْلَ أنْ يقُولَ ما قالَ ؟ فذكرْتَ أنْ لا ، فقدْ أعْرفُ أنّهُ لمْ يكُنْ ليذرَ الْكذبَ على النّاس ويكْذبَ على اللّه ، وسألْتُكَ أشْرافُ النّاس اتّبعُوهُ أمْ ضُعفاؤُهُمْ ؟ فذكرْتَ أنّ ضُعفاءَهُمُ اتّبعُوهُ ، وهُمْ أتْباعُ الرُّسُل ، وسألْتُكَ أيزيدُونَ أمْ ينْقُصُونَ ؟ فذكرْتَ أنّهُمْ يزيدُونَ ، وكذلكَ أمْرُ الإيمان حتّى يتمَّ ، وسألْتُكَ أيرْتدُّ أحدٌ سخْطةً لدينه بعْدَ أنْ يدْخُلَ فيه ؟ فذكرْتَ أنْ لا ، وكذلكَ

الإيمانُ حينَ تُخالطُ بَشاشتَهُ القُلوبَ ، وسَألْتُكَ هَلْ يَغْدرُ ؟ فَذكَرْتَ أَنْ لاَ ، وكَذلِكَ الرُّسُلُ لا تَغْدرُ ، وسَألْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ ؟ فَذكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّه ، ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، ويَنْهاكُمْ عَنْ عِبادَةِ الأَوْثَانِ ، ويَأْمُرُكُمْ بالصَّلاَةِ والصِّدْقِ والْعَفافِ . فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ ، وقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ ، فَلَوْ أَنِّى أَعْلَمُ أَنِّى أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ ، ولَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِه . ثُمَّ دَعا بِكِتاب رَسُولِ اللَّه ﷺ الَّذِى بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى ، فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ بِسْمِ اللَّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّه وَرَسُولِه إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ . سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ، أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّى أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ وَ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (١)

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ ، وفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ ، وارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ وأُخْرِجْنَا ، فَقُلْتُ لأَصْحَابِى حِينَ أُخْرِجْنَا : لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِى كَبْشَةَ – أى عظم أمر محمد – إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِى الأَصْفَرِ . فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمَ . وكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهِرَقْلَ سُقُفًا عَلَى نَصَارَى الشَّأْمِ ، يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَته قَد اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ . قَالَ ابْنُ النَّاظُورِ وكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً – أى كاهنًا – يَنْظُرُ فِى النُّجُومِ ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ: إِنِّى رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِى النُّجُومِ

(١) سورة آل عمران – الآية : ٦٤ .

مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ ، فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ قَالُوا لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلاَّ الْيَهُودُ فَلاَ يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ وَاكْتُبْ إِلَى مَدَايِنِ مُلْكِكَ ، فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ . فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ أُتِىَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ ، يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ : اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ أَمْ لاَ ؟ فَنَظَرُوا إِلَيْهِ ، فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ ، وَسَأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِ فَقَالَ : هُمْ يَخْتَتِنُونَ . فَقَالَ هِرَقْلُ : هَذَا مَلِكُ هَذِهِ الأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ . ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ ، وَكَانَ نَظِيرَهُ فِى الْعِلْمِ ، وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ ، فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ – أى لم يغادرها – حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْىَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِىِّ ﷺ وَأَنَّهُ نَبِىٌّ ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِى دَسْكَرَةٍ – أى قصر – لَهُ بِحِمْصَ ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الرُّومِ ، هَلْ لَكُمْ فِى الْفَلاَحِ وَالرُّشْدِ وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِىَّ ؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الأَبْوَابِ ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ ، وَأَيِسَ مِنَ الإِيمَانِ قَالَ : رُدُّوهُمْ عَلَىَّ . وَقَالَ : إِنِّى قُلْتُ مَقَالَتِى آنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ ، فَقَدْ رَأَيْتُ . فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ .

ثالثًا : كان أشق شرط على المسلمين أن من أتى المسلمين من المشركين رد إليهم ، ومن جاء قريشًا من المسلمين لا يردونه ؛ ومع أن ظاهره أنه ضار بالمسلمين فإن نتائجه الواقعية كانت فى صالح المسلمين .

جاء أبو بصير عتبة بن أسيد إلى المدينة مسلمًا ، وكان ممن حبس بمكة فأفلت ، فأرسل أهله فى أثره بكتاب إلى النبى ﷺ ليرده إليهم تنفيذًا لبند المعاهدة ، وبعثوا الكتاب مع رجلين، وأرسل رسول الله ﷺ إلى أبى بصير، فجاء ، فقال له رسول الله ﷺ : يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك

من المستضعفين فرجًا ومخرجًا . فانطلق إلى قومك فانطلق مع الرجلين وهو يرسم فى نفسه رسمًا ، حتى بلغوا ذا الحليفة ، فاحتال على أحدهما أن يريه سيفه ، فأراه إياه فضربه به فقتله ، وهرب الآخر وجاء إلى الرسول ﷺ فقال : يا رسول الله . قتل صاحبكم صاحبى .

وما هى إلا لحظات حتى أتى أبو بصير متوشحًا السيف ، وقال : يا رسول الله . وفت ذمتك وأدى الله عنك .أسلمتنى إلى القوم ، فأعانني الله ومنعنى من أن أفتن فى دينى . فقال صلى الله عليه وسلم : ويل أمه . محش حرب – أى مثير – وفهم أبو بصير من هذه الجملة مدحًا وتشجيعًا ووصفًا بأنه مثير للحرب ، قادر على النصر ، حبذا لو كان معه رجال مثله .

خرج إلى العيص طريق تجارة قريش ، وقطع طريق أمنها ، يهجم ويقتل ويستولى على المال ويخيف ، وأرسل إلى الضعفاء المسلمين فى مكة ، المحبوسين بجبروت أهليهم أن يفروا إليه ، وينضموا إلى عصابته ، وما هى إلا أيام حتى كان معه سبعون رجلا ، أثاروا الرعب فى تجار قريش ، وقطعوا عليهم الطريق مما دفعهم إلى أن يطلبوا من رسول الله ﷺ أن يأوى أبا بصير ومن معه ، ولا يرجعهم إلى المشركين ، وتنازلوا عن هذا الشرط . وتضرعوا إليه أن يبعث إلى أبى جندل ومن معه ، وقالوا : ومن خرج منا إليك فهو لك حلال ، بغير حرج ، فأرسل النبى ﷺ إليهم ، فقدموا عليه . فآواهم رسول الله ﷺ بالمدينة .

وهاجرت إلى رسول الله ﷺ أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط مسلمة، فخرج أخواها عمارة والوليد ، وقدما على رسول الله ﷺ ، يسألانه أن يردها عليهما تنفيذًا للعهد الذى بينه وبين أهل مكة ، إذ فسروا " من أتى محمدًا مسلمًا رده إليهم" شاملا للذكور والإناث .

فبين الله حكمه ومراده ، وأنزل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ ﴾ [1] . فأمسك رسول الله ﷺ النساء ورد الرجال .

وكان من بنود الصلح : من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه . وعملاً بهذا البند تواثبت خزاعة فقالوا : نحن فى عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر ، فقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم . ونكثت قريش فى عهدها ، فكان سببًا فى فتح مكة .

ولقد نزلت سورة الفتح فى طريقهم من الحديبية إلى المدينة ، وأكثرها يحكى ما حصل فى الحديبية ففيها : ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [2] . ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ ﴾ [3] . ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [4] . ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ

---

(١) سورة الممتحنة – الآية : ١٠ .

(٢) سورة الفتح – الآيتان : ١٩– ٢٠ .

(٣) سورة الفتح – الآية : ١٠ .

(٤) سورة الفتح الآية : ٢٤ .

مَحِلَّهُۥ ﴾ [1] . ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [2] . ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [3] .

(١) سورة الفتح – الآية : ٢٥ .

(٢) سورة الفتح – الآية : ٢٦ .

(٣) سورة الفتح – الآية : ٢٧ .

غزوة خيبر

رجع رسول الله ﷺ وأصحابه من الحديبية ، فقدموا المدينة فى ذى الحجة سنة ست ، وقد استراحوا بالمعاهدة والهدنة من قريش وأهل مكة ، ولم تمر عليهم أيام حتى استنقذوا لقاح النبى ﷺ فى غزوة ذى قرد – وقد تكلمنا عنها فى معاملة النبى ﷺ للكافرين ، ثم خرجوا إلى خيبر فى المحرم سنة سبع . وخيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع ، تبعد عن المدينة نحو مائة ميل إلى جهة الشام ، وتحكى رحلة هذه الغزوة الأحاديث :

٤١٩٥ – عَنْ سُوَيْدِ بْنِ النُّعْمَانِ أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ النَّبِىِّ ﷺ عَامَ خَيْبَرَ ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالصَّهْبَاءِ – وَهِىَ مِنْ أَدْنَى خَيْبَرَ – صَلَّى الْعَصْرَ ، ثُمَّ دَعَا بِالأَزْوَادِ فَلَمْ يُؤْتَ إِلاَّ بِالسَّوِيقِ ، فَأَمَرَ بِهِ فَثُرِّىَ ، فَأَكَلَ وَأَكَلْنَا ، ثُمَّ قَامَ إِلَى الْمَغْرِبِ ، فَمَضْمَضَ وَمَضْمَضْنَا ، ثُمَّ صَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأْ .

٤١٩٦ – وعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ ﷺ قَالَ : خَرَجْنَا مَعَ النَّبِىِّ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ فَسِرْنَا لَيْلا ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ لِعَامِرٍ : يَا عَامِرُ أَلاَ تُسْمِعُنَا مِنْ هُنَيْهَاتِكَ – أى من حاجاتك – وَكَانَ عَامِرٌ رَجُلا شَاعِرًا فَنَزَلَ يَحْدُو بِالْقَوْمِ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا *** وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا

فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا أَبْقَيْنَا *** وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا

وَأَلْقِيَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا *** إِنَّا إِذَا صِيحَ بِنَا أَبَيْنَا

(وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا) ***

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « مَنْ هَذَا السَّائِقُ » ؟ قَالُوا: عَامِرُ بْنُ الأَكْوَعِ. قَالَ : « يَرْحَمُهُ اللَّهُ » . قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : وَجَبَتْ يَا نَبِىَّ اللَّهِ ، لَوْلاَ

أَمْتَعْتَنَا بِهِ ؟ - وكان النبى ﷺ إذا قال عن شخص [يرحمه الله] مات أو استشهد - فَأَتَيْنَا خَيْبَرَ ، فَحَاصَرْنَاهُمْ حَتَّى أَصَابَتْنَا مَخْمَصَةٌ شَدِيدَةٌ ، ثُمَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَتَحَهَا عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا أَمْسَى النَّاسُ مساءَ الْيَوْمِ الَّذِى فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ أَوْقَدُوا نِيرَانًا كَثِيرَةً ، فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ : « مَا هَذِهِ النِّيرَانُ عَلَى أَىِّ شَىْءٍ تُوقِدُونَ » ؟ قَالُوا : عَلَى لَحْمٍ . قَالَ : « عَلَى أَىِّ لَحْمٍ » . قَالُوا : لَحْمِ حُمُرِ الإِنْسِيَّةِ . قَالَ النَّبِىُّ ﷺ : « أَهْرِيقُوهَا وَاكْسِرُوهَا » . فقال رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَوْ نُهَرِيقُهَا وَنَغْسِلُهَا ؟ قَالَ : « أَوْ ذَاكَ » . فَلَمَّا تَصَافَّ الْقَوْمُ كَانَ سَيْفُ عَامِرٍ قَصِيرًا فَتَنَاوَلَ بِهِ سَاقَ يَهُودِىٍّ لِيَضْرِبَهُ ، وَيَرْجِعُ ذُبَابُ سَيْفِهِ - طرف سيف - فَأَصَابَ عَيْنَ رُكْبَةِ عَامِرٍ ، فَمَاتَ مِنْهُ قَالَ : فَلَمَّا قَفَلُوا ، قَالَ سَلَمَةُ : رَآنِى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهْوَ آخِذٌ بِيَدِى ، قَالَ: « مَا لَكَ » ؟ قُلْتُ لَهُ فِدَاكَ أَبِى وَأُمِّى ، زَعَمُوا أَنَّ عَامِرًا حَبِطَ عَمَلُهُ . قَالَ النَّبِىُّ ﷺ : « كَذَبَ مَنْ قَالَهُ ، إِنَّ لَهُ لأَجْرَيْنِ - وَجَمَعَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ - إِنَّهُ لَجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ قَلَّ عَرَبِىٌّ مَشَى بِهَا مِثْلَهُ » . حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا حَاتِمٌ قَالَ : « نَشَأَ بِهَا » .

٤١٩٧ - وعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى خَيْبَرَ لَيْلا ، وَكَانَ إِذَا أَتَى قَوْمًا بِلَيْلٍ لَمْ يُغِرْ بِهِمْ حَتَّى يُصْبِحَ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ خَرَجَتِ الْيَهُودُ بِمَسَاحِيهِمْ وَمَكَاتِلِهِمْ - أى بفؤوسهم وما يجمعون فيه التراب - فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا : مُحَمَّدٌ وَاللَّهِ ، مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ - أى والجيش - فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ : « خَرِبَتْ خَيْبَرُ ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ » .

٤١٩٨ - وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : صَبَّحْنَا خَيْبَرَ بُكْرَةً ، فَخَرَجَ أَهْلُهَا بِالْمَسَاحِى ، فَلَمَّا بَصُرُوا بِالنَّبِىِّ ﷺ قَالُوا مُحَمَّدٌ وَاللَّهِ ، مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ . فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ : « اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ

قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ » . فَأَصَبْنَا مِنْ لُحُومِ الْحُمُرِ فَنَادَى مُنَادِى النَّبِىِّ ﷺ إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ . فَإِنَّهَا رِجْسٌ .

٤١٩٩ - وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَاءَهُ جَاءٍ فَقَالَ: أُكِلَتِ الْحُمُرُ . فَسَكَتَ ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَقَالَ : أُكِلَتِ الْحُمُرُ . فَسَكَتَ ، ثُمَّ الثَّالِثَةَ فَقَالَ : أُفْنِيَتِ الْحُمُرُ . فَأَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى فِى النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ . فَأُكْفِئَتِ الْقُدُورُ ، وَإِنَّهَا لَتَفُورُ بِاللَّحْمِ .

٤٢٠٠ - وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : صَلَّى النَّبِىُّ ﷺ الصُّبْحَ قَرِيبًا مِنْ خَيْبَرَ بِغَلَسٍ ثُمَّ قَالَ : « اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ ، فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ » . فَخَرَجُوا يَسْعَوْنَ فِى السِّكَكِ ، فَقَتَلَ النَّبِىُّ ﷺ الْمُقَاتِلَةَ ، وَسَبَى الذُّرِّيَّةَ ، وَكَانَ فِى السَّبْىِ صَفِيَّةُ ، فَصَارَتْ إِلَى دِحْيَةَ الْكَلْبِىِّ ، ثُمَّ صَارَتْ إِلَى النَّبِىِّ ﷺ ، فَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا . فَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ ابْنُ صُهَيْبٍ لِثَابِتٍ : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، آنْتَ قُلْتَ لأَنَسٍ : مَا أَصْدَقَهَا ؟ فَحَرَّكَ ثَابِتٌ رَأْسَهُ تَصْدِيقًا لَهُ .

٤٢٠١ - وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ يَقُولُ : سَبَى النَّبِىُّ ﷺ صَفِيَّةَ ، فَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا . فَقَالَ ثَابِتٌ لأَنَسٍ : مَا أَصْدَقَهَا ؟ قَالَ : أَصْدَقَهَا نَفْسَهَا فَأَعْتَقَهَا .

٤٢٠٢ - وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِىِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْتَقَى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ فَاقْتَتَلُوا ، فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِ ، وَمَالَ الآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ ، وَفِى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ لاَ يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً وَلاَ فَاذَّةً إِلاَّ اتَّبَعَهَا ، يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ ، فَقِيلَ : مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلاَنٌ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ » . فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : أَنَا صَاحِبُهُ . قَالَ : فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ ،

وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ – قَالَ – فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا ، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ ، فَوَضَعَ سَيْفَهُ بِالأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ : « وَمَا ذَاكَ » ؟ قَالَ : الرَّجُلُ الَّذِى ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ ، فَقُلْتُ أَنَا لَكُمْ بِهِ . فَخَرَجْتُ فِى طَلَبِهِ ، ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا ، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِى الأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » .

٤٢٠٣ – وعَنِ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : شَهِدْنَا خَيْبَرَ – بعد انتصار المسلمين – فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِرَجُلٍ مِمَّنْ مَعَهُ يَدَّعِى الإِسْلاَمَ : « هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ » . فَلَمَّا حَضَرَ الْقِتَالُ قَاتَلَ الرَّجُلُ أَشَدَّ الْقِتَالِ ، حَتَّى كَثُرَتْ بِهِ الْجِرَاحَةُ ، فَكَادَ بَعْضُ النَّاسِ يَرْتَابُ ، فَوَجَدَ الرَّجُلُ أَلَمَ الْجِرَاحَةِ ، فَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى كِنَانَتِهِ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهَا أَسْهُمًا ، فَنَحَرَ بِهَا نَفْسَهُ ، فَاشْتَدَّ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، صَدَّقَ اللَّهُ حَدِيثَكَ ، انْتَحَرَ فُلاَنٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ . فَقَالَ : « قُمْ يَا فُلاَنُ فَأَذِّنْ أَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ مُؤْمِنٌ ، إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ » .

٤٢٠٧ – وعَنْ سَهْلٍ ﷺ قَالَ : الْتَقَى النَّبِىُّ ﷺ وَالْمُشْرِكُونَ فِى بَعْضِ مَغَازِيهِ فَاقْتَتَلُوا ، فَمَالَ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى عَسْكَرِهِمْ ، وَفِى الْمُسْلِمِينَ رَجُلٌ لاَ يَدَعُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاذَّةً وَلاَ فَاذَّةً إِلاَّ اتَّبَعَهَا فَضَرَبَهَا بِسَيْفِهِ ، فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَجْزَأَ أَحَدُهُمْ مَا أَجْزَأَ فُلاَنٌ ؟ فَقَالَ : « إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ » .

فَقَالُوا : أَيُّنَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِنْ كَانَ هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ ؟ فَقَالَ رَجُلٌ : مِنَ الْقَوْمِ لأَتَّبِعَنَّهُ ، فَإِذَا أَسْرَعَ وَأَبْطَأَ كُنْتُ مَعَهُ . حَتَّى جُرِحَ فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ ، فَوَضَعَ نِصَابَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ ، وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ ، فَجَاءَ الرَّجُلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ . فَقَالَ : « وَمَا ذَاكَ » . فَأَخْبَرَهُ . فَقَالَ : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ ، وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » .

٤٢٠٩ - وَعَنْ سَلَمَةَ ﷺ قَالَ : كَانَ عَلِيٌّ ﷺ تَخَلَّفَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي خَيْبَرَ ، وَكَانَ رَمِدًا فَقَالَ : أَنَا أَتَخَلَّفُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَحِقَ ، فَلَمَّا بِتْنَا اللَّيْلَةَ الَّتِي فُتِحَتْ قَالَ : « لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا - أَوْ لَيَأْخُذَنَّ الرَّايَةَ غَدًا - رَجُلٌ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، يُفْتَحُ عَلَيْهِ » . فَنَحْنُ نَرْجُوهَا فَقِيلَ : هَذَا عَلِيٌّ، فَأَعْطَاهُ فَفُتِحَ عَلَيْهِ .

٤٢١٠ - وَعَن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ : « لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلا ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ » . قَالَ : فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا فَقَالَ : « أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ » ؟ فَقِيلَ : هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ . قَالَ : « فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ » . فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ ، وَدَعَا لَهُ ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ ، فَقَالَ عَلِيٌّ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا ؟ فَقَالَ : « انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ

مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ » .

٤٢١١ - وعَنْ أنس بْنِ مَالك ﷺ قَالَ : قدمنَا خيبر ، فلمَا فتح اللَّهُ عَلَيْه الْحصْنَ ذُكر لَهُ جمَالُ صَفيَّة بِنْت حُيَيّ بْنِ أخطب ، وقدْ قُتل زَوْجُهَا وكَانَتْ عَرُوسًا ، فَاصْطَفَاهَا النَّبِىُّ ﷺ لنفسه ، فخرج بِهَا ، حتّى بلَغْنا سَدّ الصَّهْبَاء حَلَّتْ ، فَبَنَى بِهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ ، ثُمّ صنع حيسا فِى نِطعٍ صغيرٍ ، ثُمَّ قَالَ لِى : « آذنْ مَنْ حَوْلَكَ » . فَكَانَتْ تلْكَ وليمتهُ على صَفيَّة ، ثُمّ خَرَجْنَا إِلَى الْمَدِينَة ، فَرَأَيْتُ النَّبِىَّ ﷺ يُحَوِّى لَهَا وراءَهُ بعباءَة ، ثُمَّ يَجْلِسُ عِنْدَ بَعِيرِه ، فَيَضَعُ رُكْبَتَهُ ، وتَضَعُ صَفِيَّةُ رِجْلَهَا عَلَى رُكْبَتِهِ حتَّى تَرْكَبَ .

٤٢١٢ - وعن أَنسِ بْنِ مَالك ﷺ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ أَقَامَ عَلَى صَفيَّةَ بِنْت حُيَىٍّ ، بِطَرِيقِ خَيْبَرَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ، حَتَّى أَعْرَسَ بِهَا ، وكَانَتْ فِيمَنْ ضُرِبَ عَلَيْهَا الْحِجَابُ .

٤٢١٣ - وعن أَنَس ﷺ يَقُولُ أَقَامَ النَّبِىُّ ﷺ بَيْنَ خَيْبَرَ وَالْمَدِينَة ثَلاثَ لَيَالٍ يُبْنَى عَلَيْه بصَفيَّةَ ، فَدَعَوْتُ الْمُسْلِمينَ إِلَى وليمته ، وَمَا كَانَ فيهَا منْ خُبْزٍ وَلاَ لَحْمٍ ، وَمَا كَانَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ أَمَرَ بِلالا بِالأَنْطَاعِ فَبُسطَتْ ، فَأَلْقَى عَلَيْهَا التَّمْرَ وَالأَقِطَ وَالسَّمْنَ ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمنِينَ، أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ قَالُوا إِنْ حَجَبَهَا فَهِىَ إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ لَمْ يَحْجُبْهَا فَهِىَ مِمَّا مَلَكَتْ يَمِينُهُ . فَلَمَّا ارْتَحَلَ وَطَّأَ لَهَا خَلْفَهُ ، وَمَدَّ الْحِجَابَ .

٤٢١٤ - وعَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلاَلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ ﷺ قَالَ : كُنَّا مُحَاصِرِى خَيْبَرَ فَرَمَى إِنْسَانٌ بِجِرَابٍ فِيهِ شَحْمٌ ، فَنَزَوْتُ لآخُذَهُ ، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا النَّبِىُّ ﷺ ، فَاسْتَحْيَيْتُ .

٤٢١٥ - وعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

نَهَى يَوْمَ خَيْبَرَ عَنْ أَكْلِ الثَّوْمِ ، وَعَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ . نَهَى عَنْ أَكْلِ الثَّوْمِ هُوَ عَنْ نَافِعٍ وَحْدَهُ . وَلُحُومُ الْحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ عَنْ سَالِمٍ .

٤٢١٦ - وعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ مُتْعَةِ النِّسَاءِ يَوْمَ خَيْبَرَ ، وَعَنْ أَكْلِ الْحُمُرِ الإِنْسِيَّةِ .

٤٢١٧ - وعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى يَوْمَ خَيْبَرَ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ .

٤٢١٨ - عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - قَالَ : نَهَى النَّبِىُّ ﷺ عَنْ أَكْلِ لُحُومِ الْحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ .

٤٢١٩ - وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رضى الله عنهما - قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ ، وَرَخَّصَ فِى الْخَيْلِ .

٤٢٢٠ - وعن ابْنِ أَبِى أَوْفَى - رضى الله عنهما - أَصَابَتْنَا مَجَاعَةٌ يَوْمَ خَيْبَرَ . فَإِنَّ الْقُدُورَ لَتَغْلِى - قَالَ وبَعْضُهَا نَضِجَتْ - فَجَاءَ مُنَادِى النَّبِىِّ ﷺ لاَ تَأْكُلُوا مِنْ لُحُومِ الْحُمُرِ شَيْئًا وَأَهْرِيقُوهَا . قَالَ ابْنُ أَبِى أَوْفَى : فَتَحَدَّثْنَا أَنَّهُ إِنَّمَا نَهَى عَنْهَا لأَنَّهَا لَمْ تُخَمَّسْ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : نَهَى عَنْهَا الْبَتَّةَ ، لأَنَّهَا كَانَتْ تَأْكُلُ الْعَذِرَةَ .

٤٢٢١ و ٤٢٢٢ - وعَنِ الْبَرَاءِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِى أَوْفَى - رضى الله عنهم - أَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ النَّبِىِّ ﷺ فَأَصَابُوا حُمُرًا فَطَبَخُوهَا ، فَنادى مُنَادِى النَّبِىِّ ﷺ : أَكْفِئُوا الْقُدُورَ .

٤٢٢٦ - وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ - رضى الله عنهما - قَالَ : أَمرنا النَّبِىُّ ﷺ فِى غَزْوَةِ خَيْبَرَ أَنْ نُلْقِىَ الْحُمُرَ الأَهْلِيَّةَ نِيئَةً ونَضِيجَةً ، ثُمَّ لَمْ يَأْمُرْنَا بِأَكْلِهِ بَعْدُ .

٤٢٢٧ - وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضى الله عنهما - قَالَ : لاَ أَدْرِى أَنَهَى عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ كَانَ حَمُولَةَ النَّاسِ ، فَكَرِهَ أَنْ تَذْهَبَ حَمُولَتُهُمْ ، أَوْ حَرَّمَهُ فِى يَوْمِ خَيْبَرَ ، لَحْمَ الْحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ .

٤٢٢٨ - وعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - قَالَ : قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ لِلْفَرَسِ سَهْمَيْنِ ، وَلِلرَّاجِلِ سَهْمًا . قَالَ فَسَّرَهُ نَافِعٌ فَقَالَ : إِذَا كَانَ مَعَ الرَّجُلِ فَرَسٌ فَلَهُ ثَلاَثَةُ أَسْهُمٍ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فَرَسٌ فَلَهُ سَهْمٌ .

٤٢٢٩ - وعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ : مَشَيْتُ أَنَا وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ إِلَى النَّبِىِّ ﷺ فَقُلْنَا أَعْطَيْتَ بَنِى الْمُطَّلِبِ مِنْ خُمْسِ خَيْبَرَ ، وَتَرَكْتَنَا ، وَنَحْنُ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْكَ . فَقَالَ : « إِنَّمَا بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ شَىْءٌ وَاحِدٌ ». قَالَ جُبَيْرٌ : وَلَمْ يَقْسِمِ النَّبِىُّ ﷺ لِبَنِى عَبْدِ شَمْسٍ وَبَنِى نَوْفَلٍ شَيْئًا .

٤٢٣٠ - وعَنْ أَبِى مُوسَى ﷺ قَالَ بَلَغَنَا مَخْرَجُ النَّبِىِّ ﷺ وَنَحْنُ بِالْيَمَنِ ، فَخَرَجْنَا مُهَاجِرِينَ إِلَيْهِ أَنَا ، وَأَخَوَانِ لِى أَنَا أَصْغَرُهُمْ ، أَحَدُهُمَا أَبُو بُرْدَةَ ، وَالآخَرُ أَبُو رُهْمٍ - إِمَّا قَالَ : بِضْعٌ وَإِمَّا قَالَ - فِى ثَلاَثَةٍ وَخَمْسِينَ أَوِ اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ رَجُلا مِنْ قَوْمِى ، فَرَكِبْنَا سَفِينَةً ، فَأَلْقَتْنَا سَفِينَتُنَا إِلَى النَّجَاشِىِّ بِالْحَبَشَةِ ، فَوَافَقْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِى طَالِبٍ فَأَقَمْنَا مَعَهُ حَتَّى قَدِمْنَا جَمِيعًا ، فَوَافَقْنَا النَّبِىَّ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ خَيْبَرَ ، وَكَانَ أُنَاسٌ مِنَ النَّاسِ يَقُولُونَ لَنَا - يَعْنِى لأَهْلِ السَّفِينَةِ - سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ ، وَدَخَلَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ ، وَهْىَ مِمَّنْ قَدِمَ مَعَنَا ، عَلَى حَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِىِّ ﷺ زَائِرَةً ، وَقَدْ كَانَتْ هَاجَرَتْ إِلَى النَّجَاشِىِّ فِيمَنْ هَاجَرَ ، فَدَخَلَ عُمَرُ عَلَى حَفْصَةَ وَأَسْمَاءُ عِنْدَهَا ، فَقَالَ عُمَرُ حِينَ رَأَى أَسْمَاءَ : مَنْ هَذِهِ ؟ قَالَتْ : أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ . قَالَ عُمَرُ : الْحَبَشِيَّةُ هَذِهِ الْبَحْرِيَّةُ هَذِهِ قَالَتْ : أَسْمَاءُ

نَعَمْ . قَالَ : سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ ، فَنَحْنُ أَحَقُّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْكُمْ . فَغَضِبَتْ وَقَالَتْ : كَلاَّ وَاللَّهِ ، كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُطْعِمُ جَائِعَكُمْ ، وَيَعِظُ جَاهِلَكُمْ، وَكُنَّا فِي دَارٍ أَوْ فِي أَرْضِ الْبُعَدَاءِ الْبُغَضَاءِ بِالْحَبَشَةِ ، وَذَلِكَ فِي اللَّهِ وَفِي رَسُولِهِ ﷺ وَايْمُ اللَّهِ ، لاَ أَطْعَمُ طَعَامًا ، وَلاَ أَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّى أَذْكُرَ مَا قُلْتَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ كُنَّا نُؤْذَى وَنُخَافُ ، وَسَأَذْكُرُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَسْأَلُهُ ، وَاللَّهِ لاَ أَكْذِبُ وَلاَ أَزِيغُ وَلاَ أَزِيدُ عَلَيْهِ .

٤٢٣١ - فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَتْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّ عُمَرَ قَالَ : كَذَا وَكَذَا . قَالَ : « فَمَا قُلْتِ لَهُ » ؟ قَالَتْ : قُلْتُ لَهُ كَذَا وَكَذَا . قَالَ : « لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ ، وَلَهُ وَلأَصْحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ أَهْلَ السَّفِينَةِ هِجْرَتَانِ » . قَالَتْ : فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مُوسَى وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ يَأْتُونِي أَرْسَالا ، يَسْأَلُونِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ ، مَا مِنَ الدُّنْيَا شَيْءٌ هُمْ بِهِ أَفْرَحُ وَلاَ أَعْظَمُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِمَّا قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ . قَالَ أَبُو بُرْدَةَ : قَالَتْ أَسْمَاءُ : فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مُوسَى وَإِنَّهُ لَيَسْتَعِيدُ هَذَا الْحَدِيثَ مِنِّي .

٤٢٣٢ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنِّي لأَعْرِفُ أَصْوَاتَ رُفْقَةِ الأَشْعَرِيِّينَ بِالْقُرْآنِ ، حِينَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرَ مَنَازِلَهُمْ حِينَ نَزَلُوا بِالنَّهَارِ، وَمِنْهُمْ حَكِيمٌ ، إِذَا لَقِيَ الْخَيْلَ - أَوْ قَالَ الْعَدُوَّ - قَالَ لَهُمْ إِنَّ أَصْحَابِي يَأْمُرُونَكُمْ أَنْ تَنْظُرُوهُمْ » .

٤٢٣٣ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ : قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ أَنِ افْتَتَحَ خَيْبَرَ ، فَقَسَمَ لَنَا ، وَلَمْ يَقْسِمْ لأَحَدٍ لَمْ يَشْهَدِ الْفَتْحَ غَيْرَنَا .

٤٢٣٤ - وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ يَقُولُ : افْتَتَحْنَا خَيْبَرَ ، وَلَمْ نَغْنَمْ ذَهَبًا وَلاَ فِضَّةً ، إِنَّمَا غَنِمْنَا الْبَقَرَ وَالإِبِلَ وَالْمَتَاعَ وَالْحَوَائِطَ ، ثُمَّ انْصَرَفْنَا مَعَ

رَسُولِ اللَّه ﷺ إِلَى وَادِى الْقُرَى ، وَمَعَهُ عَبْدٌ لَهُ يُقَالُ لَهُ مِدْعَمٌ ، أَهْدَاهُ لَهُ أَحَدُ بَنِى الضِّبَابِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَحُطُّ رَحْلَ رَسُولِ اللَّه ﷺ إِذْ جَاءَهُ سَهْمٌ عَائِرٌ حَتَّى أَصَابَ ذَلِكَ الْعَبْدَ ، فَقَالَ النَّاسُ : هَنِيئًا لَهُ الشَّهَادَةُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « بَلَى وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ ، إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِى أَصَابَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الْمَغَانِمِ لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا » . فَجَاءَ رَجُلٌ حِينَ سَمِعَ ذَلِكَ مِنَ النَّبِىِّ ﷺ بِشِرَاكٍ أَوْ بِشِرَاكَيْنِ ، فَقَالَ : هَذَا شَىْءٌ كُنْتُ أَصَبْتُهُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « شِرَاكٌ أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ » .

٤٢٣٥ - وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قال : أَمَا وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ ، لَوْلاَ أَنْ أَتْرُكَ آخِرَ النَّاسِ بَبَّانًا - أى فقراء معدمين - لَيْسَ لَهُمْ شَىْءٌ ، مَا فُتِحَتْ عَلَىَّ قَرْيَةٌ إِلاَّ قَسَمْتُهَا كَمَا قَسَمَ النَّبِىُّ ﷺ خَيْبَرَ ، وَلَكِنِّى أَتْرُكُهَا خِزَانَةً لَهُمْ يَقْتَسِمُونَهَا .

٤٢٣٦ - وَعَنْ عُمَرَ ﷺ قَالَ : لَوْلاَ آخِرُ الْمُسْلِمِينَ مَا فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ قَرْيَةٌ إِلاَّ قَسَمْتُهَا ، كَمَا قَسَمَ النَّبِىُّ ﷺ خَيْبَرَ .

٤٢٣٧ - عن أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ أَتَى النَّبِىَّ ﷺ فَسَأَلَهُ ، قَالَ لَهُ بَعْضُ بَنِى سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ : لاَ تُعْطِه . فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : هَذَا قَاتِلُ ابْنِ قَوْقَلٍ . فقال : وَاعَجَبَاهْ لِوَبْرٍ تَدَلَّى مِنْ قَدُومِ الضَّأْنِ .

٤٢٣٨ - وَعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ يُخْبِرُ سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِى قَالَ : بَعَثَ رَسُولُ اللَّه ﷺ أَبَانَ عَلَى سَرِيَّةٍ مِنَ الْمَدِينَةِ قِبَلَ نَجْدٍ ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : فَقَدِمَ أَبَانُ وَأَصْحَابُهُ عَلَى النَّبِىِّ ﷺ بِخَيْبَر ، بَعْدَ مَا افْتَتَحَهَا ، وَإِنَّ حُزُمَ خَيْلِهِمْ لَلِيفٌ . قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : قُلْتُ : يا رَسُولَ اللَّه ، لاَ تَقْسِمْ لَهُمْ قَالَ : أَبَانُ وَأَنْتَ بِهَذَا يَا وَبْرُ تَحَدَّرَ مِنْ رَأْسِ ضَأْنٍ . فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ : « يَا أَبَانُ اجْلِسْ » فَلَمْ يَقْسِمْ لَهُمْ .

٤٢٣٩ - وعن عَمْرو بْنِ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ قَالَ : أَخْبَرَنِى جَدِّى أَنَّ أَبَانَ بْنَ سَعِيدٍ أَقْبَلَ إِلَى النَّبِىِّ ﷺ فسلم عَلَيْهِ ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا قَاتِلُ ابْنِ قَوْقَلٍ . وَقَالَ أَبَانُ لأَبِى هُرَيْرَةَ : وَاعَجَبًا لَكَ وَبْرٌ تَدَأْدَأَ مِنْ قَدُومِ ضَأْنٍ . يَنْعَى عَلَىَّ امْرَأً أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِيَدِى، وَمَنَعَهُ أَنْ يُهِينَنِى بِيَدِهِ.

٤٢٤٠ و ٤٢٤١ - عَنْ عَائِشَةَ - رضى الله عنها - أَنَّ فَاطِمَةَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - بِنْتَ النَّبِىِّ ﷺ أَرْسَلَتْ إِلَى أَبِى بَكْرٍ تَسْأَلُهُ مِيرَاثَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ وَفَدَكَ ، وَمَا بَقِىَ مِنْ خُمُسِ خَيْبَرَ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لاَ نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ ، إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِى هَذَا الْمَالِ » . وَإِنِّى وَاللَّهِ لاَ أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْ صَدَقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ حَالِهَا الَّتِى كَانَ عَلَيْهَا فِى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلأَعْمَلَنَّ فِيهَا بِمَا عَمِلَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَبَى أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَدْفَعَ إِلَى فَاطِمَةَ مِنْهَا شَيْئًا فَوَجَدَتْ فَاطِمَةُ عَلَى أَبِى بَكْرٍ فِى ذَلِكَ فَهَجَرَتْهُ ، فَلَمْ تُكَلِّمْهُ حَتَّى تُوُفِّيَتْ ، وَعَاشَتْ بَعْدَ النَّبِىِّ ﷺ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، فَلَمَّا تُوُفِّيَتْ ، دَفَنَهَا زَوْجُهَا عَلِىٌّ لَيْلاً ، وَلَمْ يُؤْذِنْ بِهَا أَبَا بَكْرٍ وَصَلَّى عَلَيْهَا ، وَكَانَ لِعَلِىٍّ مِنَ النَّاسِ وَجْهٌ حَيَاةَ فَاطِمَةَ ، فَلَمَّا تُوُفِّيَتْ اسْتَنْكَرَ عَلِىٌّ وُجُوهَ النَّاسِ ، فَالْتَمَسَ مُصَالَحَةَ أَبِى بَكْرٍ وَمُبَايَعَتَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ يُبَايِعُ تِلْكَ الأَشْهُرَ ، فَأَرْسَلَ إِلَى أَبِى بَكْرٍ أَنِ ائْتِنَا ، وَلاَ يَأْتِنَا أَحَدٌ مَعَكَ ، كَرَاهِيَةً لِمَحْضَرِ عُمَرَ . فَقَالَ عُمَرُ : لاَ وَاللَّهِ لاَ تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ وَحْدَكَ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَمَا عَسَيْتَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا بِى ، وَاللَّهِ لآتِيَنَّهُمْ . فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ ، فَتَشَهَّدَ عَلِىٌّ فَقَالَ : إِنَّا قَدْ عَرَفْنَا فَضْلَكَ ، وَمَا أَعْطَاكَ ، اللَّهُ وَلَمْ نَنْفَسْ عَلَيْكَ خَيْرًا سَاقَهُ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَكِنَّكَ اسْتَبْدَدْتَ عَلَيْنَا بِالأَمْرِ ، وَكُنَّا نَرَى لِقَرَابَتِنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَصِيبًا . حَتَّى فَاضَتْ عَيْنَا أَبِى بَكْرٍ ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ قَالَ : وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَىَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِى ، وَأَمَّا الَّذِى شَجَرَ

بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ مِنْ هَذِهِ الأَمْوَالِ ، فَلَمْ آلُ فِيهَا عَنِ الْخَيْرِ ، وَلَمْ أَتْرُكْ أَمْرًا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُهُ فِيهَا إِلاَّ صَنَعْتُهُ . فَقَالَ عَلِىٌّ لأَبِى بَكْرٍ : مَوْعِدُكَ الْعَشِيَّةُ لِلْبَيْعَةِ . فَلَمَّا صَلَّى أَبُو بَكْرٍ الظُّهْرَ رَقِىَ عَلَى الْمِنْبَرِ ، فَتَشَهَّدَ وَذَكَرَ شَأْنَ عَلِىٍّ ، وَتَخَلُّفَهُ عَنِ الْبَيْعَةِ ، وَعُذْرَهُ بِالَّذِى اعْتَذَرَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ ، وَتَشَهَّدَ عَلِىٌّ فَعَظَّمَ حَقَّ أَبِى بَكْرٍ ، وَحَدَّثَ أَنَّهُ لَمْ يَحْمِلْهُ عَلَى الَّذِى صَنَعَ نَفَاسَةً عَلَى أَبِى بَكْرٍ ، وَلاَ إِنْكَارًا لِلَّذِى فَضَّلَهُ اللَّهُ بِهِ ، وَلَكِنَّا نَرَى لَنَا فِى هَذَا الأَمْرِ نَصِيبًا ، فَاسْتَبَدَّ عَلَيْنَا ، فَوَجَدْنَا فِى أَنْفُسِنَا ، فَسُرَّ بِذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ وَقَالُوا أَصَبْتَ . وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى عَلِىٍّ قَرِيبًا ، حِينَ رَاجَعَ الأَمْرَ الْمَعْرُوفَ .

٤٢٤٢ - وَعَنْ عَائِشَةَ - رضى الله عنها - قَالَتْ : وَلَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ قُلْنَا : الآنَ نَشْبَعُ مِنَ التَّمْرِ .

٤٢٤٣ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - قَالَ : مَا شَبِعْنَا حَتَّى فَتَحْنَا خَيْبَرَ .

٤٢٤٤ و ٤٢٤٥ - عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ وَأَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنهما - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَعْمَلَ رَجُلا عَلَى خَيْبَرَ ، فَجَاءَهُ بِتَمْرٍ جَنِيبٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كُلُّ تَمْرِ خَيْبَرَ هَكَذَا » . فَقَالَ : لاَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّا لَنَأْخُذُ الصَّاعَ مِنْ هَذَا بِالصَّاعَيْنِ { وَالصَّاعَيْنِ } بِالثَّلاَثَةِ . فَقَالَ : « لاَ تَفْعَلْ ، بِعِ الْجَمْعَ بِالدَّرَاهِمِ ، ثُمَّ ابْتَعْ بِالدَّرَاهِمِ جَنِيبًا » .

٤٢٤٥ - وَعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ وَأَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنهما - أَنَّ رَسُولَ ﷺ اسْتَعْمَلَ رَجُلا عَلَى خَيْبَرَ ، فَجَاءَهُ بِتَمْرٍ جَنِيبٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كُلُّ تَمْرِ خَيْبَرَ هَكَذَا » ؟ فَقَالَ : لاَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَا لَنَأْخُذُ الصَّاعَ مِنْ هَذَا بِالصَّاعَيْنِ { وَالصَّاعَيْنِ } بِالثَّلاَثَةِ . فَقَالَ : « لاَ

تَفْعَلْ ، بِعِ الْجَمْعَ بِالدَّرَاهِمِ ، ثُمَّ ابْتَعْ بِالدَّرَاهِمِ جَنِيبًا » .

٤٢٤٦ – وعن أَبى سَعِيدٍ وَأَبى هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ بَعَثَ أَخَا بَنِى عَدِىٍّ مِنَ الأَنْصَارِ إِلَى خَيْبَرَ فَأَمَّرَهُ عَلَيْهَا .

٤٢٤٨ – وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : أَعْطَى النَّبِىُّ ﷺ خَيْبَرَ الْيَهُودَ أَنْ يَعْمَلُوهَا وَيَزْرَعُوهَا ، ولَهُمْ شَطْرُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا .

٤٢٤٩ – وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ .

القصة . أحداثها ونتائجها :

تحولت خيبر إلى تجمع يهودى ، ناقض للعهد ، عدو للإسلام . تجمع فيه زعماء قينقاع وزعماء بنى المصطلق ، وسادة بنى النضير حين غزا الإسلام قراهم ، وتقرر جلاؤهم منها ، فرغبوا فى الإقامة فى خيبر لكثرة خيراتها ، وجودة أراضيها ، وانفتاح قلوب أهلها لإخوانهم المطرودين ، وبُعدها نسبيًا عن القلق والاحتكاك بالمسلمين .

ثم إنها صارت الموقع الوحيد لليهود فى جزيرة العرب الذى يمثل شوكة فى ظهر الإسلام وهو العدو اللدود للمسلمين بعد قريش .

فإذا كان المسلمون بعد صلح الحديبية قد هادنوا قريشًا وأمنوها بالمعاهدة المؤقتة فإن الفرصة تكون قد سنحت لهم لمعاقبة بقايا اليهود وفلولهم ومن تحزب مع قريش فى غزوة الخندق ، وفتح الأبواب أمام الدعوة الإسلامية ، وتطهير ما يمكن تطهيره فى جزيرة العرب من الكفرة والمشركين .

عاد أبطال المهاجرين والأنصار من الحديبية دون أن يرفعوا راياتهم ، ويُعملوا سيوفهم ، عادوا بقلوب مجروحة ، ونفوس أبية مشحونة،

عادوا وهم فى حاجة إلى تفريغ شحنتهم فى عدو من أعدائهم .

فلم يمض شهران من عودتهم حتى خرجوا إلى خيبر .

خرجوا فى أيام قحط ومجاعة، لم يجدوا من أزواد السفر إلا السويق وإلا السويق القليل ، مما جعل الرسول ﷺ يطلب منهم أن يجمعوا ما عندهم من زاد ليأكل منه من معه ومن لا شيء معه ، ولم يؤت صلى الله عليه وسلم إلا بقليل من السويق فوضع الماء على النار يغلى ، ثم أمر بالسويق أن يذر ويثرى فى الماء ، ثم أكلوا .

قطعوا المسافة فى بعض يوم وليلة ، والعرب من عادتهم فى السفر يسيرون بالليل ، ويستريحون بالنهار ، وكعادة العرب ييسر لهم الطريق الحداء والأغانى ، حتى الإبل تتمتع بالحداء ، يتطوع أحدهم من أهل الصوت الحسن بالغناء ، وكان الحادى فى ليلتهم عامر بن الأكوع، نزل عن بعيره، وقاد بعيرًا من قافلة النساء ، وأخذ يغنى أغنية دينية . وسمع النبى ﷺ حداءه ، فسأل رسول الله ﷺ : من هذا السائق الحادى ؟ قالوا : عامر بن الأكوع ، فأعجب بكلماته وبصوته ودعا له بالرحمة ، وكان النبى ﷺ قد أخبر عن طريق الوحى أنه يستشهد فى هذه الغزوة ، فقال : يرحمه الله وكان من عادة النبى ﷺ إذا قال عن شخص : يرحمه الله كان أجله قريبًا ، يعلم الصحابة ذلك منه، فلما استرحم على عامر أدركوا أنه سيستشهد فأسفوا عليه . فقال عمر ﷺ : وجبت الدعوة وتحققت . لا نشك فى هذا . ولكننا كنا نحب أن يطول أجله ، ونتمتع به أكثر مما تمتعنا .

وفعلا دخل عامر المعركة ، والتحم بيهودى يطعن كل منهما الآخر بسيفه ، وكان سيف عامر قصيرًا ، فوقى نفسه من سيف اليهودى بالترس، وأخذ يضرب اليهودى من أسفل ، فرجع طرف سيفه الأعلى على نفسه ،

وأصاب عرقًا فى ركبته وقطعه ، فسال دمه ، ومات بسببه، فقال أصحابه: قتل نفسه بسيفه ، فهو من أهل النار ، وسمع هذه المقالة ابن أخيه سلمة بن الأكوع فحزن حزنًا شديدًا ، ورآه رسول الله ﷺ فى عودتهم إلى المدينة كئيبًا ، وهو المرح ، فأخذ بيده ، وربت على كتفه ، وسأله عن همه ، فقال: فداك أبى وأمى يا رسول الله . زعموا أن عامرًا حبط عمله . قال النبى ﷺ : كذبوا كذب من قال هذا . إن له لأجرين . قلَّ وندر من فعل فعله .

كان أهل خيبر قد ظنوا أن محمدًا ﷺ بعد صلح الحديبية سيقصدهم ، ويصفى حسابه معهم ، فكانوا إذا خرجوا إلى مزارعهم يستعدون للحرب، ويحملون معهم أسلحتهم .

وكان يهود خيبر قد أقاموا الحصون المنيعة القوية التى جعلتهم يشعرون بالقوة والعزة ، ويثقون بالغلبة والنصر ، فأخذوا يؤلبون العرب حولهم ضد محمد ﷺ وضد الإسلام والمسلمين .

يضاف إلى ذلك كثرة أموالهم ، ووفرة سلاحهم .

فلما طال عليهم الزمن ، ولم يصلهم جيش المسلمين استبعدوا الحرب ، ولم يعودوا يهتمون إذا خرجوا إلى المزارع بأخذ حذرهم ، واستصحاب سلاحهم .

وفى صبيحة يوم خرجوا ومعهم المكاتل والفؤوس ، ففوجئوا بمحمد ﷺ وجيشه . كان رسول الله ﷺ قد خرج إليهم فى جيش تعداده ألف وستمائة مقاتل ، ومعهم مائتا فرس .

وصل الجيش إلى الصهباء قريبًا من خيبر بعد العصر ، فصلوا العصر ، ثم دعا رسول الله ﷺ بالأزواد ليجمعها ويباركها ، وليأكل الجيش،

وكان المفروض أن يكون فى الأزواد تمر ولحم قديد ونحو ذلك لكنهم كانوا فى ضيق ، فلم يكن معهم إلا السويق ، دشيش القمح ، جمعها ، ووضع القدور على النار بالماء ، ثم أمر بهذا الدشيش أن يذرى فى الماء ، وهو يغلى ، حتى نضج وأكل الجيش حتى شبعوا ، ثم مضمضوا وصلوا المغرب ، ولم يتوضئوا ؛ لأن وضوءهم السابق لم ينتقض بالسويق .

سار الجيش حتى وصل واديًا يقال له الرجيع فنزل به القائد الملهم بجيشه ؛ لأنه بين خيبر وبين غطفان ، فنزوله فى هذا الوادى يحول بين غطفان وبين مساعدة يهود خيبر .

وكان بينهم وبينهم مودة وعهود وتعاون ، وفعلا كان غطفان قد جمعوا جموعهم ، واستعدوا للخروج لمساعدة اليهود ، لكنهم خافوا على أموالهم ونسائهم وذرياتهم من جيش المسلمين، فأقاموا فى أهليهم وأموالهم، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر .

وصل الرسول ﷺ خيبر ليلا ، وكان إذا غزا قومًا لم يهاجمهم حتى يصبح ، فإن سمع آذانًا أمسك ولم يهاجم ، وإن لم يسمع أذانًا هاجم .

أصبح الصبح ولم يسمع أذانًا فتحرك بجيشه نحو حصونهم ، وكان اليهود قد بدءوا يخرجون إلى مزارعهم ، يحملون فؤوسهم ومكاتلهم وأدوات الفلاحة ، ولم يكونوا يحملون سلاحًا ، فلما رأوا الجيش أخذ بعضهم يحذر بعضًا ، ويقول : ارجع إلى حصنك فقد جاء محمد وجيشه ، فرجعوا جريًا هاربين .

كانت خطتهم أن وضعوا الأموال فى حصون أغلقوها ، ووضعوا النساء والذرية فى حصون منيعة معهم حشد من الأسلحة والحديد المحمى الذى يلقونه من أعلى الحصون على المسلمين . وأغلقوها على أنفسهم .

حاصرهم المسلمون خمسة عشر يومًا ، ولم يستطيعوا أن يفتحوا الحصون ، كان فريق من اليهود يخرجون فى النهار يقاتلون بشراسة ، فإذا جاء الليل تحصنوا بحصونهم .

فى هذه الأيام ابتلى المسلمون بالجوع ، وبالمخمصة الشديدة ، فأكلوا من المزارع الثوم والبصل والحشائش ، وذبحوا الحمر الأهلية ، وأوقدوا عليها القدور ليأكلوها ، فنهاهم رسول الله ﷺ عن أكلها .

وفى ليلة من الحصار مال رسول الله ﷺ إلى عسكره حتى الصباح ، وأخذوا يتحدثون فى ليلهم عما جرى فى نهارهم ، فذكروا رجلا شجاعًا قويًا مقدامًا ، قاتل قتالا شديدًا لم يترك شاردة ولا واردة من اليهود إلا قضى عليها ، وكان يصول ويجول ، ويقتل ويجرح ، مثل للبطولة الفريدة التى لن يعهودها . تحدث الصحابة يثنون عليه أمام الرسول ﷺ فقال - بعلم الله الذى أوحاه إليه - إنه من أهل النار ، وتعجب الصحابة ، وراقبوا الرجل فى اليوم التالى ، فرأوا عجبًا . الرجل لا يترك يهوديًا شاردًا أو واردًا إلا هاجمه وقضى عليه ، ورجعوا فى الليل يتحدثون عنه وعن إنجازه ، ومرة ثانية يقول صلى الله عليه وسلم : هو من أهل النار ، وكاد بعض المسلمين يرتاب فى هذا الخبر، وقال بعضهم : يا رسول الله . إذا كان هذا من أهل النار فمن منا يكون من أهل الجنة ؟ فأعاد رسول الله ﷺ: هو من أهل النار . قال رجل من الصحابة : أنا غدًا سأتبع هذا الرجل ، تبعية الظل للأصل لأرى وأسجل حركاته وسكناته فتبعه إن أسرع أسرع معه ، وإن وقف وقف معه وحارب الرجل حربًا لم يحاربها غيره ، لكنه جرح جرحًا لم يصبر على ألمه ، فوضع قبضة سيفه فى الأرض ، وسنه وطرفه إلى أعلى ، وأسند عليه صدره ، فقتل نفسه ، فكان من أهل النار . فعاد الرجل ليلا يقول للمسلمين: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا

رسول الله . وحكى قصة الرجل ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن هذا الرجل كان فاجرًا ، وإن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس ويكون من أهل الجنة ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار .

خمسة عشر يومًا أو نحوها ، والمسلمون يحاصرون الحصون ، وقد خرجوا بدون زاد ، وطالت مدة الحصار ، واشتدت بهم المجاعة حتى عطف عليهم عدوهم ، ولانت لهم بعض القلوب من الرجال أو النساء فأخذوا يرمون للمسلمين من فوق الحصون بعض الطعام .

اشتدت بهم المجاعة لكن الحصار كان على اليهود أشد .

بضعة عشر يومًا يقود المسلمين كل يوم قائد ، ثم لا يفتح له ، وفى الليلة الأخيرة من نهاية الحصار قال رسول الله ﷺ : لأعطين الراية والقيادة غدًا لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه . وكان هذا القائد البطل علىٌّ بن أبى طالب ﷺ ، فأعطاه الراية فى الصباح .

وسأل علىٌّ رسول الله ﷺ : هل أقاتلهم حتى يسلموا ؟ فقال له : انفذ إليهم برفق حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، ولا تحرص على سفك الدماء ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدًا خير لك من غنيمة النعم وفتح الله على يديه بقية حصون خيبر ، وآخرها حصن القموص ، وهو أعظم حصونهم .

فصالحوا النبى ﷺ على أن يجلوامن خيبر ، ولهم ما حملت ركابهم، على أن لا يحملوا الذهب والفضة والسلاح ، وعلى أن لا يكتموه شيئًا غيبوه ، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد . فغيبوا جلد ناقة فيه كنز بنى النضير ، فجيء بكنانة بن الربيع ، وسئل عن هذا الكنز ، فقال : أذهبته

النفقات ، قيل له : العهد قريب ، والمال كثير ؟ قال : أذهبته النفقات الكثيرة . قيل له : أرأيت إن وجدناه . أنفتلك ؟ قال : نعم .

وجاء رجل من يهود ، فقال للنبى ﷺ : إنى رأيت كنانة يدور حول هذه الخربة كل صباح ، فأمر رسول الله ﷺ بحفر هذه الخربة ، فوجد بعض الكنز ، ثم سئل عن بقيته فأنكر ، فدفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة ، فضرب عنقه قصاصًا لأخيه محمود بن مسلمة .

ثم قرر رسول الله ﷺ إجلاءهم أو قتلهم . فعرضوا على رسول الله ﷺ أن يبقيهم فى حصونهم ، وأن يعملوا فى الأرض ويزرعوها مقابل نصف ما يخرج منها من ثمر أو زرع ، فقبل رسول الله ﷺ على أن يكون للمسلمين حق إجلائهم متى شاءوا . فبقوا فيها حتى أجلاهم عمر إلى الشام رضى الله عنه .

ولما هدأت أمور الحرب أهديت إلى رسول الله ﷺ شاة مسمومة ، نقرأ قصتها فى الحديث :

٣١٦٩ – عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِىِّ ﷺ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ، فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: « اجْمَعُوا إِلَىَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ ». فَجُمِعُوا لَهُ فَقَالَ : « إِنِّى سَائِلُكُمْ عَنْ شَىْءٍ فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِىَّ عَنْهُ » ؟ فَقَالُوا نَعَمْ . قَالَ لَهُمُ ﷺ : « مَنْ أَبُوكُمْ » ؟ قَالُوا فُلاَنٌ . فَقَالَ : « كَذَبْتُمْ ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلاَنٌ » . قَالُوا : صَدَقْتَ . قَالَ : « فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِىَّ عَنْ شَىْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ » ؟ فَقَالُوا : نَعَمْ . يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِى أَبِينَا . فَقَالَ لَهُمْ : « مَنْ أَهْلُ النَّارِ » . قَالُوا : نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا ، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا . فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ : « اخْسَئُوا فِيهَا ، وَاللَّهِ لاَ نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا – ثُمَّ قَالَ – : هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِىَّ عَنْ شَىْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ

عَنْهُ » ؟ فقالوا : نعمْ . يَا أَبَا الْقَاسِمِ . قَالَ : « هَلْ جَعَلْتُمْ فِى هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا » ؟ قالوا : نعمْ . قَالَ : « مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ » ؟ قَالُوا : أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كاذبا نستريحُ ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ .

أهدتها له زينب بنت الحارث ، امرأة سلام بن مشكم ، وكانت قد سألت أى عضو من الشاة أحب إلى محمد ؟ قيل لها : الذراع ، فأكثرت فيها السم ، فلما تناول الذراع لاك منها مضغة ، ولم يبتلعها ، وأكل معه بشر بن البراء فأساغ لقمته ، وجاء الصحابة ليأكلوا ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : أمسكوا ، فإنها مسمومة .

وأحضرت إليه صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : ما حملك على ذلك؟ قالت : قتلت أبى وعمى وزوجى وأخى ، فأردت أن أكتشف أمرك ، إن كنت نبيًا أطلعك الله ، وإن كنت كاذبًا أرحت الناس منك ، وقد استبان لى الآن أنك صادق ، وإنى أشهدك وأشهد من حضر أنى على دينك وأن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله . فانصرف عنها.

قيل : تركها لأنها أسلمت ، وقيل : لما مات بشر بن البراء من سمها اقتص منها وقتلها قصاصًا .

ويستفاد من هذه القصة جواز الأكل من طعام أهل الكتاب ، وجواز قبول هديتهم .

وجمعت الغنائم ، أموال وثياب ومتاع ، وإبل وبقر وغنم ، ووزعت على الجيش ، للراجل سهم ، وللفرس سهمان .

وما قسم رسول الله ﷺ لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئًا إلا لمن شهد معه وإلا أصحاب السفينة الذين قدموا من الحبشة ، الذين وصلوا إلى المدينـــة والرسول ﷺ بخيبـــر ، فرغبوا أن يلحقوا رسول الله ﷺ هناك ،

فزودهم أهل المدينة زادًا يوصلهم ، فحضروا قسمة الغنيمة ، وكانوا بضعًا وخمسين ، فى مقدمتهم جعفر بن أبى طالب وامرأته أسماء بنت عميس ، وخالد بن سعيد بن العاص وامرأته ، وأخوه عمرو بن سعيد ، ومعيقب بن أبى فاطمة ، وأبو هريرة ، وأبو موسى ، والأشعريون ، فأسهم لهم رسول الله ﷺ مع الغانمين .

قسم رسول الله ﷺ غنائم خيبر ، فعزل نصفها لنوائبه وحاجته ، وقسم نصفها بين المسلمين . وعلم أهل فدك – وهم يهود فى قرية بينها وبين المدينة ثلاث مراحل – علموا بفتح خيبر فأرسلوا إلى النبى ﷺ يطلبون منه الأمان على أن يتركوا البلاد ويرحلوا ، فكانت أرضهم لرسول الله ﷺ خاصة ، وكذلك كانت فدك تُصرف على أمهات المؤمنين وبنى هاشم فى عهد أبى بكر وعمر ، ثم أقطعها عثمان مروان على أساس أن الذى يخص النبى ﷺ يكون للخليفة من بعده .

وكان مخيريق يهوديًا من بنى قينقاع ، فأوصى بأمواله من بعده لمحمد ﷺ يضعها حيث يريه الله ، فأطلق على أموال مخيريق صدقة رسول الله ﷺ ، فكان تحت يده صلى الله عليه وسلم نصف ناتج خيبر وأموال فدك وأموال مخيريق ينفق منها على أزواجه ، وعلى نوائب المسلمين ، وعمل أبو بكر ﷺ فى هذه الأموال ما كان يعمله فيها رسول الله ﷺ ، وظنت فاطمة وبعض أمهات المؤمنين أن هذه الأموال تركة لرسول الله ﷺ فطلبن من أبى بكر ميراثهن ، وكانت الأحاديث :

٣٠٩٢ – عن عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ – رضى الله عنها – أَنَّ فَاطِمَةَ – عَلَيْهَا السَّلَامُ – ابْنَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَأَلَتْ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَقْسِمَ لَهَا مِيرَاثَهَا ، مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ

عَلَيْهِ .

٣٠٩٣ - فَقَالَ لَهَا أَبُو بَكْرٍ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لاَ نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ » . فَغَضِبَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهَجَرَتْ أَبَا بَكْرٍ . فَلَمْ تَزَلْ مُهَاجِرَتَهُ حَتَّى تُوُفِّيَتْ وَعَاشَتْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سِتَّةَ أَشْهُرٍ . قَالَتْ: وَكَانَتْ فَاطِمَةُ تَسْأَلُ أَبَا بَكْرٍ نَصِيبَهَا مِمَّا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ خَيْبَرَ وَفَدَكَ وَصَدَقَتِهِ بِالْمَدِينَةِ ، فَأَبَى أَبُو بَكْرٍ عَلَيْهَا ذَلِكَ ، وَقَالَ : لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْمَلُ بِهِ إِلاَّ عَمِلْتُ بِهِ ، فَإِنِّى أَخْشَى إِنْ تَرَكْتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَزِيغَ . فَأَمَّا صَدَقَتُهُ بِالْمَدِينَةِ فَدَفَعَهَا عُمَرُ إِلَى عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ ، فَأَمَّا خَيْبَرُ وَفَدَكٌ فَأَمْسَكَهَا عُمَرُ ، وَقَالَ : هُمَا صَدَقَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَتَا لِحُقُوقِهِ الَّتِى تَعْرُوهُ وَنَوَائِبِهِ ، وَأَمْرُهُمَا إِلَى مَنْ وَلِىَ الأَمْرَ . قَالَ : فَهُمَا عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ .

وكان الحديث :

٣٠٩٤ - عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الْحَدَثَانِ ، وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ جُبَيْرٍ ذَكَرَ لِى ذِكْرًا مِنْ حَدِيثِهِ ذَلِكَ ، فَانْطَلَقْتُ حَتَّى أَدْخُلَ عَلَى مَالِكِ بْنِ أَوْسٍ ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ الْحَدِيثِ فَقَالَ مَالِكٌ : بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ فِى أَهْلِى حِينَ مَتَعَ النَّهَارُ ، إِذَا رَسُولُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَأْتِينِى فَقَالَ : أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ حَتَّى أَدْخُلَ عَلَى عُمَرَ ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى رِمَالِ سَرِيرٍ ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ مُتَّكِئٌ عَلَى وِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ جَلَسْتُ فَقَالَ : يَا مَالِ ، إِنَّهُ قَدِمَ عَلَيْنَا مِنْ قَوْمِكَ أَهْلُ أَبْيَاتٍ ، وَقَدْ أَمَرْتُ فِيهِمْ بِرَضْخٍ فَاقْبِضْهُ فَاقْسِمْهُ بَيْنَهُمْ . فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَوْ أَمَرْتَ بِهِ غَيْرِى . قَالَ : اقْبِضْهُ أَيُّهَا الْمَرْءُ . فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عِنْدَهُ أَتَاهُ حَاجِبُهُ يَرْفَا فَقَالَ : هَلْ لَكَ فِى عُثْمَانَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَالزُّبَيْرِ وَسَعْدِ بْنِ

أبى وقَّاص يستأذنون ؟ قَالَ : نعَمْ . فأذنَ لهُمْ فدخلوا فسلَّموا وجلسوا ، ثمَ جلس يرْفا يسيرًا ثمَّ قَالَ : هَلْ لكَ فى علىٍّ وعَبَّاس ؟ قَال : نعَمْ . فأذنَ لهما . فدخلا فسلما فجلسا ، فقَال عباسٌ : يا أمير المؤْمنِينَ ، اقْض بيْنِى وبيْن هذا . وهُمَا يخْتصمان فيما أفاءَ اللَّهُ علَى رسُوله ﷺ منْ بَنى النَّضير . فقَال : الرَّهْطُ عُثْمَانُ وأصحابهُ يا أمير الْمُؤْمنينَ ، اقْض بيْنَهُما وأرحْ أحدهما من الآخر . قَالَ عمرُ : تيْدكُمْ ، أنْشدُكُمْ باللَّه الَّذى بإذْنه تقُومُ السَّماءُ والأرْضُ ، هَلْ تعلَمُون أنَّ رسُول اللَّه ﷺ قَالَ : « لا نُورثُ ما تركْنَا صدقَةٌ » ؟ يُريدُ رسُولُ اللَّه ﷺ نفْسَهُ . قَالَ الرَّهْطُ : قَدْ قَالَ ذَلكَ . فأقْبلَ عُمَرُ علَى علىٍّ وعبَّاسٍ فقَالَ : أنْشدُكما اللَّهَ ، أتعْلَمَان أنَّ رسُولَ اللَّه ﷺ قَدْ قَالَ ذَلكَ ؟ قَالا : قَدْ قَالَ ذَلكَ . قَالَ عُمَرُ : فإنِّى أُحدِّثُكمْ عَنْ هَذَا الأَمْرِ ، إنَّ اللَّهَ قَدْ خَصَّ رسُولَهُ ﷺ فى هَذَا الْفَىْء بشَىْءٍ لَمْ يُعْطه أحدًا غيْــرَهُ – ثُــمَّ قَرأَ ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ ﴾ إلَى قَوْله ﴿ قَدِيرٌ ۝ ﴾ [1] . فكَانتْ هَذه خَالصَةً لرَسُول اللَّه ﷺ . وَاللَّه ما احْتَازَها دُونَكُمْ ، ولاَ اسْتَأْثَرَ بهَا علَيْكُمْ قَدْ أعْطَاكُمُوهُ ، وبَثَّها فيكُمْ حتَّى بَقى منْها هَذَا الْمَالُ ، فكَانَ رسُولُ اللَّه ﷺ يُنْفقُ علَى أهْله نفَقَةَ سَنَتهمْ منْ هَذَا الْمَال ، ثُمَّ يَأْخُذُ ما بَقِىَ فيَجْعَلُهُ مجْعَلَ مَال اللَّه ، فعَملَ رسُولُ اللَّه ﷺ بذَلكَ حيَاتَهُ ، أنْشدُكُمْ باللَّه : هَلْ تعْلَمُونَ ذَلكَ ؟ قَالُوا : نعَمْ . ثُمَّ قَالَ لعَلىٍّ وعَبَّاسٍ : أنْشدُكُمَا باللَّه ، هَلْ تعْلَمَان ذَلكَ ؟ قَالَ عُمَرُ : ثُمَّ توَفَّى اللَّهُ نبيَّهُ ﷺ ، فقَالَ أَبُو بكْرٍ : أنَا ولىُّ رسُول اللَّه ﷺ . فقَبَضَهَا أَبُو بكْرٍ ، فعَملَ فيهَا بمَا عَملَ رسُولُ اللَّه ﷺ ، وَاللَّهُ يعْلَمُ إنَّهُ فيهَا لصَادقٌ بَارٌّ رَاشدٌ تَابعٌ للْحَقِّ ، ثُمَّ توَفَّى اللَّهُ أبَا بكْرٍ ، فكُنْتُ أنَا ولىَّ أَبى بكْرٍ ، فقَبَضْتُهَا سَنَتَيْن

(1) سورة الحشر – الآية : ٦ .

مِنْ إِمَارَتِى ، أَعْمَلُ فِيهَا بِمَا عَمِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا عَمِلَ فِيهَا أَبُو بَكْرٍ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنِّى فِيهَا لَصَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ ، ثُمَّ جِئْتُمَانِى تُكَلِّمَانِى وَكَلِمَتُكُمَا وَاحِدَةٌ ، وَأَمْرُكُمَا وَاحِدٌ ، جِئْتَنِى يَا عَبَّاسُ تَسْأَلُنِى نَصِيبَكَ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ ، وَجَاءَنِى هَذَا - يُرِيدُ عَلِيًّا - يُرِيدُ نَصِيبَ امْرَأَتِهِ مِنْ أَبِيهَا ، فَقُلْتُ لَكُمَا : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لاَ نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ » . فَلَمَّا بَدَا لِى أَنْ أَدْفَعَهُ إِلَيْكُمَا قُلْتُ إِنْ شِئْتُمَا دَفَعْتُهَا إِلَيْكُمَا عَلَى أَنَّ عَلَيْكُمَا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَتَعْمَلاَنِ فِيهَا بِمَا عَمِلَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَبِمَا عَمِلَ فِيهَا أَبُو بَكْرٍ ، وَبِمَا عَمِلْتُ فِيهَا مُنْذُ وَلِيتُهَا ، فَقُلْتُمَا ادْفَعْهَا إِلَيْنَا . فَبِذَلِكَ دَفَعْتُهَا إِلَيْكُمَا ، فَأَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ ، هَلْ دَفَعْتُهَا إِلَيْهِمَا بِذَلِكَ ؟ قَالَ الرَّهْطُ : نَعَمْ . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى عَلِىٍّ وَعَبَّاسٍ فَقَالَ : أَنْشُدُكُمَا بِاللَّهِ هَلْ دَفَعْتُهَا إِلَيْكُمَا بِذَلِكَ ؟ قَالاَ: نَعَمْ . قَالَ : فَتَلْتَمِسَانِ مِنِّى قَضَاءً غَيْرَ ذَلِكَ ، فَوَاللَّهِ الَّذِى بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ، لاَ أَقْضِى فِيهَا قَضَاءً غَيْرَ ذَلِكَ ، فَإِنْ عَجَزْتُمَا عَنْهَا فَادْفَعَاهَا إِلَىَّ ، فَإِنِّى أَكْفِيكُمَاهَا .

كان العهد الذى قضى أن الأرض لله ولرسوله ، ليس فيها ملك ، وإنما أقروا على زراعتها ما شاء المسلمون ، فلما خانوا ونكثوا عهدهم ، وحاولوا قتل ابن عمر أجلاهم عمر رضي الله عنه .

وقسم عمر خيبر على من فتحها من المسلمين بعد أن أجلى اليهود إلى الشام ، وعوضهم ودفع لهم قيمة ما كان لهم من الثمر مالا وإبلا وأمتعة ونحو ذلك . يحدثنا عن ذلك الحديث :

٢٧٣٠ - عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - قَالَ : لَمَّا فَدَعَ أَهْلُ خَيْبَرَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ ، قَامَ عُمَرُ خَطِيبًا فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ عَامَلَ يَهُودَ خَيْبَرَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ، وَقَالَ : « نُقِرُّكُمْ مَا أَقَرَّكُمُ اللَّهُ » . وَإِنَّ

عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ خَرَجَ إِلَى مَالِهِ هُنَاكَ فَعُدِىَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّيْلِ ، فَفُدِعَتْ يَدَاهُ وَرِجْلَاهُ ، وَلَيْسَ لَنَا هُنَاكَ عَدُوٌّ غَيْرُهُمْ ، هُمْ عَدُوُّنَا وَتُهمَتُنَا ، وَقَدْ رَأَيْتُ إِجْلَاءَهُمْ ، فَلَمَّا أَجْمَعَ عُمَرُ عَلَى ذَلِكَ أَتَاهُ أَحَدُ بَنِى أَبِى الْحُقَيْقِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتُخْرِجُنَا وَقَدْ أَقَرَّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ وَعَامَلَنَا عَلَى الأَمْوَالِ ، وَشَرَطَ ذَلِكَ لَنَا فَقَالَ عُمَرُ : أَظَنَنْتَ أَنِّى نَسِيتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « كَيْفَ بِكَ إِذَا أُخْرِجْتَ مِنْ خَيْبَرَ تَعْدُو بِكَ قَلُوصُكَ ، لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ » . فَقَالَ : كَانَتْ هَذِهِ هُزَيْلَةً مِنْ أَبِى الْقَاسِمِ . قَالَ : كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ . فَأَجْلَاهُمْ عُمَرُ وَأَعْطَاهُمْ قِيمَةَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الثَّمَرِ مَالًا وَإِبِلًا وَعُرُوضًا ، مِنْ أَقْتَابٍ وَحِبَالٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

ولما قسم عمر خيبر خيَّر أزواج النبى ﷺ بين أن يقطع لهن أرضًا يزرعنها ، وبين أن يمضى لهن ما كان يعطى لهن ، فمنهن من اختار الأرض ، ومنهن من اختار الوسق ، وكانت عائشة قد اختارت الأرض . يحدثنا عن ذلك الحديث :

٢٣٢٨ - عَنْ نَافِعٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ - رضى الله عنهما - أَخْبَرَهُ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ عَامَلَ خَيْبَرَ بِشَطْرِ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ أَوْ زَرْعٍ ، فَكَانَ يُعْطِى أَزْوَاجَهُ مِائَةَ وَسْقٍ ثَمَانُونَ وَسْقَ تَمْرٍ وَعِشْرُونَ وَسْقَ شَعِيرٍ ، فَقَسَمَ عُمَرُ خَيْبَرَ، فَخَيَّرَ أَزْوَاجَ النَّبِىِّ ﷺ أَنْ يُقْطِعَ لَهُنَّ مِنَ الْمَاءِ وَالأَرْضِ، أَوْ يُمْضِىَ لَهُنَّ ، فَمِنْهُنَّ مَنِ اخْتَارَ الأَرْضَ ، وَمِنْهُنَّ مَنِ اخْتَارَ الْوَسْقَ ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ اخْتَارَتِ الأَرْضَ .

ونعود إلى غنائم خيبر ، وكانت أم المؤمنين صفية بنت حيى من سباياها ، فاصطفاها صلى الله عليه وسلم ، وتزوجها ، وجعل عتقها صداقها ، ودخل بها فى قرية من قرى خيبر على بعد ستة أميال من خيبر

وأقام معها فى هذه القرية ثلاثة أيام ، وأقام وليمة الزواج من غير خبز ولا لحم ، بل فرش بساط الطعام . وجاء المسلمون بما عندهم من تمر وجبن وسمن .

كانت صفية حين معارك خيبر عروسًا ، زوجها كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق ، فقتل بخيبر لكذبه وغدره وإخفائه الكنز عن رسول الله ﷺ ، فجاء دحية فقال : يا رسول الله . أعطنى جارية من السبى ، قال : اذهب فخذ جارية ، فأخذ صفية ، فجاء رجل فقال : يا نبى الله . أعطيت دحية صفية ، سيدة قريظة والنضير ، لا تصلح إلا لك ، قال : ادعوه بها ، فجاء بها ، فلما نظر إليها النبى ﷺ قال له : خذ جارية من السبى غيرها ، وهكذا لم يكن الدافع للرسول ﷺ لأخذ صفية جمالها ، كما يحلو للبعض أن يقول ، وإنما كان الدافع حفظ كرامتها ووضع الأمور فى نصابها ، فقد قيل للنبى ﷺ : إنها بنت ملك من ملوكهم ، فرأى أنها ليست ممن توهب لدحية، لكثرة من كان فى الصحابة مثل دحية وفوقه ، وقلة من كان فى السبى مثل صفية فى نفاستها ، فلو خصه بها لأمكن تغير خاطر بعضهم ، فكان من المصلحة العامة ارتجاعها من دحية ، واختصاص النبى ﷺ بها ، وكان فى ذلك رضًا للجميع ، وقد أعطى رسول الله ﷺ دحية ما رضى به ، قيل : اشتراها بسبعة أرؤس . وتفصيل قصتها سبق عند الكلام على أمهات المؤمنين أزواج النبى ﷺ .

وعاد جيش المسلمين إلى المدينة ، يكبر كلما علا جبلا أو هبط واديًا لكنهم كانوا يجهدون أنفسهم ويرفعون أصواتهم رفعًا يضرهم ، فكان هذا الحديث :

٤٢٠٥ - عَنْ أَبِى مُوسَى الأَشْعَرِىِّ ﷺ قَالَ: لَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

خَيْبَرَ - أَوْ قَالَ : لَمَّا تَوَجَّهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - أَشْرَفَ النَّاسُ عَلَى وَادٍ ، فَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ : اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا ، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ » . وَأَنَا خَلْفَ دَابَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَمِعَنِى وَأَنَا أَقُولُ : لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ، فَقَالَ لِى : « يَا عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ قَيْسٍ » . قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ » . قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فِدَاكَ أَبِى وَأُمِّى . قَالَ : « لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ » .

وكان تمر خيبر زادًا للمسلمين ، شبعوا منه حتى قالت عائشة - رضى الله عنها - :

٤٢٤٢ - عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ عَائِشَةَ - رضى الله عنها - قَالَتْ : وَلَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ قُلْنَا الآنَ نَشْبَعُ مِنَ التَّمْرِ .

٤٢٤٣ - وقال ابن عمر - رضى الله عنهما -: مَا شَبِعْنَا حَتَّى فَتَحْنَا خَيْبَرَ .

إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد

يحكى ابن هشام فى سيرته على لسان عمرو بن العاص قوله :

لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالا من قريش ، كانوا يرون رأيى ، ويسمعون منى ، فقلت لهم : تعلموا والله إنى أرى أمر محمد يعلو الأمور علوا منكرًا ، وإنى لقد رأيت أمرًا ، فما ترون فيه ؟ قالوا : وماذا رأيت ؟ قال : رأيت أن نلحق بالنجاشى فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى ولأن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدى محمد ، وإن ظهر قومنا فنحن قد عرفوا ، فلن يأتينا منهم إلا خير ، قالوا : إن هذا لرأى سديد . قلت : فأجمعوا لنا ما نهديه له ، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الجلود المدبوغة . فجمعنا له جلودًا كثيرة ، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه ، فوالله إنا لعنده إذا جاءه عمرو بن أمية الضمرى وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه فى شأن جعفر وأصحابه قال : فدخل عليه ، ثم خرج من عنده ، قال : فقلت لأصحابى : هذا عمرو بن أمية الضمرى . لو سألت النجاشى أن يعطينيه فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنى قمت مقامها فيه ، قال : فدخلت على النجاشى ، فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال : مرحبًا بصديقى . أهديت إلى من بلادك شيئًا ؟ قلت : نعم أيها الملك . قد أهديت إليك جلودًا كثيرة ، ثم قربتها إليه ، فأعجبته . ثم قلت : أيها الملك . إنى قد رأيت رجلا خرج من عندك ، وهو رسول رجل عدو لنا ، فأعطينيه لأقتله ، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا . قال : فغضب ، فضرب أنفه بيده ضربة ظننت أنه كسره فلو انشقت الأرض لدخلت فيها خوفًا منه ، ثم قلت : أيها الملك ، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه . قال : أتسألنى أن أعطيك

رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وعيسى لتقتله ؟ قال قلت : أيها الملك . أكذاك هو ؟ قال : ويحك يا عمرو . أطعنى واتبعه ، فإنه والله لعلى الحق ، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قلت : أفتبايعنى له على الإسلام ؟ قال : نعم ، فبسط يده فبايعته على الإسلام ، ثم خرجت إلى أصحابى وقد تغير رأيى عما كان عليه ، وكتمت أصحابى إسلامى .

ثم خرجت عامدًا إلى رسول الله ﷺ لأسلم ، فلقيت خالد بن الوليد ، وذلك قبيل الفتح ، وهو مقبل من مكة ، فقلت : أين يا أبا سليمان ؟ قال والله لقد استقام الأمر ووضح ، وإن الرجل لنبى . فحتى متى لا نسلم ؟ قلت : والله ما جئت إلا لأسلم . قال : فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ ، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع ، ثم دنوت فقلت : يا رسول الله إنى أبايعك على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى . قال رسول الله ﷺ : يا عمرو . بايع فإن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، قال : فبايعته ، ثم انصرفت .

عمرة القضاء

كان أحد بنود صلح الحديبية أن يرجع المسلمون هذا العام ، لا يدخلون مكة على أن يدخلوها العام المقبل معتمرين ، لا يحملون سلاحًا عدا السيف فى غمده ، يقيمون فى مكة ثلاثة أيام يخلى فيها أهل مكة الحرم للمسلمين .

وتنفيذًا لهذا البند خرج رسول الله ﷺ فى ذى القعدة سنة سبع من الهجرة ، وخرج معه كل من كان معه فى الحديبية إلا من مات أو استشهد، وخرج معه آخرون معتمرين ، فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان ، وتسمى عمرة القصاص وعمرة القضية وعمرة الصلح .

وكانت فى ذى القعدة ، سنة سبع من الهجرة ، وخرج معه من كان صد عند الحديبية إلا من مات أو استشهد ، وخرج معه آخرون معتمرين فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان .

ونعيد إلى الأذهان ما وقع فى معاهدة الحديبية مما يخص هذه الترجمة فى الحديث :

٤٢٥١ - عَنِ الْبَرَاءِ ﷺ قَالَ : لَمَّا اعْتَمَرَ النَّبِىُّ ﷺ فِى ذِى الْقَعْدَةِ ، فَأَبَى أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يَدَعُوهُ يَدْخُلُ مَكَّةَ ، حَتَّى قَاضَاهُمْ عَلَى أَنْ يُقِيمَ بِهَا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ، فَلَمَّا كَتَبُوا الْكِتَابَ كَتَبُوا ، هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ . قَالُوا : لاَ نُقِرُّ بِهَذَا ، لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا مَنَعْنَاكَ شَيْئًا ، وَلَكِنْ أَنْتَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ . فَقَالَ : « أَنَا رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ». ثُمَّ قَالَ لِعَلِىٍّ : « امْحُ رَسُولَ اللَّهِ » . قَالَ عَلِىٌّ : لاَ وَاللَّهِ لاَ أَمْحُوكَ أَبَدًا . فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْكِتَابَ ، وَلَيْسَ يُحْسِنُ يَكْتُبُ ، فَكَتَبَ هَذَا مَا قَاضَى مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ لاَ يُدْخِلُ مَكَّةَ السِّلاَحَ ، إِلاَّ السَّيْفَ فِى الْقِرَابِ ، وَأَنْ

لاَ يَخْرُجَ مِنْ أَهْلِهَا بِأَحَدٍ ، إِنْ أَرَادَ أَنْ يَتْبَعَهُ ، وَأَنْ لاَ يَمْنَعَ مِنْ أَصْحَابِهِ أَحَدًا، إِنْ أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ بِهَا . فَلَمَّا دَخَلَهَا وَمَضَى الأَجَلُ أَتَوْا عَلِيًّا فَقَالُوا قُلْ لِصَاحِبِكَ اخْرُجْ عَنَّا ، فَقَدْ مَضَى الأَجَلُ . فَخَرَجَ النَّبِىُّ ﷺ فَتَبِعَتْهُ ابْنَةُ حَمْزَةَ تُنَادِى يَا عَمِّ يَا عَمِّ . فَتَنَاوَلَهَا عَلِىٌّ ، فَأَخَذَ بِيَدِهَا وَقَالَ لِفَاطِمَةَ - عَلَيْهَا السَّلاَمُ - دُونَكِ ابْنَةَ عَمِّكِ . حَمَلَتْهَا فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِىٌّ وَزَيْدٌ وَجَعْفَرٌ . قَالَ عَلِىٌّ : أَنَا أَخَذْتُهَا وَهْىَ بِنْتُ عَمِّى . وَقَالَ جَعْفَرٌ : ابْنَةُ عَمِّى وَخَالَتُهَا تَحْتِى . وَقَالَ زَيْدٌ : ابْنَةُ أَخِى . فَقَضَى بِهَا النَّبِىُّ ﷺ لِخَالَتِهَا وَقَالَ : « الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ » . وَقَالَ لِعَلِىٍّ : « أَنْتَ مِنِّى وَأَنَا مِنْكَ » . وَقَالَ لِجَعْفَرٍ : « أَشْبَهْتَ خَلْقِى وَخُلُقِى » . وَقَالَ لِزَيْدٍ : « أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلاَنَا ». وَقَالَ عَلِىٌّ : أَلاَ تَتَزَوَّجُ بِنْتَ حَمْزَةَ . قَالَ : « إِنَّهَا ابْنَةُ أَخِى مِنَ الرَّضَاعَةِ » .

٤٢٥٢ - عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - أَنَّ رَسُولَ ﷺ خَرَجَ مُعْتَمِرًا ، فَحَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ ، فَنَحَرَ هَدْيَهُ ، وَحَلَقَ رَأْسَهُ بِالْحُدَيْبِيَةِ ، وَقَاضَاهُمْ عَلَى أَنْ يَعْتَمِرَ الْعَامَ الْمُقْبِلَ ، وَلاَ يَحْمِلَ سِلاَحًا عَلَيْهِمْ إِلاَّ سُيُوفًا ، وَلاَ يُقِيمَ بِهَا إِلاَّ مَا أَحَبُّوا ، فَاعْتَمَرَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ ، فَدَخَلَهَا كَمَا كَانَ صَالَحَهُمْ ، فَلَمَّا أَنْ أَقَامَ بِهَا ثَلاَثًا أَمَرُوهُ أَنْ يَخْرُجَ ، فَخَرَجَ .

فى هذه الأيام الثلاثة تزوج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث أخت أم الفضل زوجة عمه العباس . جعلت أمرها لأختها أم الفضل ، فجعلت أم الفضل أمرها إلى العباس ، فزوجها رسول الله ﷺ بمكة ، وأصدقها عن رسول الله ﷺ أربعمائة درهم ، ولم يدخل بها إلا فى الطريق إلى المدينة عند قرية تدعى سرف ؛ لأن أهل مكة قد وكلوا حويطب بن عبد العزى بإخراج رسول الله ﷺ من مكة ، فقال له : قد انقضى أجلك فاخرج عنا ،

فقال النبى ﷺ : وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعامًا فحضرتموه . قالوا : لا حاجة لنا فى طعامك ، فاخرج عنا . فخرج رسول الله ﷺ ، وخلف أبا رافع مولاه على ميمونة حتى أتاه بها فى سرف ، فبقى بها رسول الله ﷺ هناك . ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة فى ذى الحجة .

غزوة مؤتة

وهى من الشام على مرحلتين من بيت المقدس .

وسببها أن شرحبيل بن عرو الغسانى ، وهو من أمراء قيصر على الشام قتل رسولا أرسله النبى ﷺ إلى صاحب بصرى ، فجهز النبى ﷺ عسكرًا فى ثلاثة آلاف .

تحرك الجيش إلى مؤتة فى جمادى سنة ثمان ، ولأول مرة ، وللمرة الوحيدة التى لم تتكرر عَيَّن رسول الله ﷺ لهذا الجيش ثلاثة من القادة مرتبين ، حتى أطلق على هذا الجيش جيش الأمراء ، وقد عزَّ على جعفر تقديم زيد عليه ، فقال : يا رسول الله . بأبى أنت وأمى ، ما كنت أحب أن تستعمل علىّ زيدًا قال له صلى الله عليه وسلم : امض . فإنك لا تدرى أى ذلك خير ؟

كان جيش المسلمين ثلاثة آلاف ، وكان جيش الروم أكثر من مائة ألف .

وبدأ القتال الشرس بين جيشين غير متكافئين ، زيد بن حارثة يحمل راية النبى ﷺ يقاتل بها وعليها ، فأحاطت به رماح الروم وسيوفهم ، فقضوا عليه ، فأخذ الراية جعفر بن أبى طالب ، يضرب يمينًا وشمالا على فرسه ، حتى رأى أنه صار الهدف المبارز للأعداء ، فنزل عن فرسه ، وأخذ يقاتل ، فقطعت يده اليمنى ، فأمسك الراية بيده اليسرى ، وقاتل ، فقطعت يده اليسرى ، فاحتضن الراية وقاتل حتى قتل ، وكان ابن ثلاث وثلاثين سنة يحدثنا عن ذلك الحديث :

٤٢٦١ - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - قَالَ : أَمَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِى غَزْوَةِ مُوتَةَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنْ

قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ ، وَإِنْ قُتِلَ جعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ » . قَالَ عَبْدُ اللَّه : كُنْتُ فِيهِمْ فِى تِلْكَ الْغَزْوَةِ فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِى طَالِبٍ ، فَوَجَدْنَاهُ فِى الْقَتْلَى ، وَوَجَدْنَا فِى جَسَدِهِ بِضْعًا وَتِسْعِينَ بين طَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ .

ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة ، فدار على فرسه حول نفسه ، يتردد بعض التردد ، لكنه تغلب على هذا بأشعار قال فيها :

يا نفسِ إلاَّ تقتلى تموتى * هذا حمام الموت قدْ صليت**

وما تمنيت فقد أعطيت * إن تفعلى فعلهما هُديت**

يقصد صاحبيه زيدًا وجعفرًا . ثم نزل عن فرسه ، فقاتل حتى قتل .

فأخذ الراية ثابت بن أرقم ، فقال : يا معشر المسلمين ، اصطلحوا على رجل منكم يحمل اللواء . قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل ، فتقدم خالد بن الوليد ، فاصطلحوا عليه .

ودخل الليل ، وانحاز كل جيش ، ثم أصبح الصبح ، فغير خالد هيئة جيشه ، جعل ميمنته ميسرة ، وميسرته قلبًا ، وقلبه ميمنه ، يوهم العدو بأنه قد جاءه مدد ، فتغيرت الوجوه ، وقد حصل ، وتوهم العدو ذلك فعلا ، وداخلهم الخوف والرعب ، وحمل عليهم خالد حملة ، فولوا مدبرين منهزمين ، ولم يتبعهم خالد ، خشية أن يتجمعوا ويتكاثروا ، وانحاز بجيشه ، ورأى أن الرجوع بالمسلمين فى هذا الظرف هو الغنيمة الكبرى .

ونزل جبريل على النبى ﷺ فى نفس اليوم يخبره خبر المعركة ، ونعى رسول الله ﷺ إلى الصحابة زيدًا وجعفرًا وابن رواحة فقال :

٤٢٦٢ - عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ نَعَى زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ ، قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ فَقَالَ : « أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ ، ثُمَّ أَخَذَها

جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ ، ثُمَّ أَخَذَها ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ - وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ - حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » .

ومن يومئذ سمى خالد بن الوليد سيف الله .

وبلَّغ رسول الله ﷺ استشهاد جعفر لأهله وزوجه ، وذهب إلى بيته يقول : إيتونى بأولاد أخى ، فجيء بهم كأنهم أفراخ صغار ، فاحتضنهم وقبلهم ودعا لهم ، وجلس حزينًا ، والنساء فى البيت باكيات . يصور هذا المنظر حديث ابن إسحاق عن أسماء بنت عميس زوجة جعفر ، إذ تقول :

لما أصيب جعفر وأصحابه دخل على رسول الله ﷺ وقد دبغت أربعين جلدًا ، وعجنت عجنتى ، وغسلت بنى ودهنتهم ونظفتهم . قالت : فقال رسول الله ﷺ : ائتنى ببنى جعفر . قالت : فأتيته بهم ، فتشممهم وذرفت عيناه ، فقلت : يا رسول الله . بأبى أنت وأمى .ما يبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟ قال : أصيبوا هذا اليوم . قالت : فقمت أصيح ، واجتمع إلى النساء . والأحاديث الآتية ترسم شراسة المعركة :

٤٢٦٤ - عَنْ عَامِرٍ قَالَ : كَانَ ابْنُ عُمَرَ إِذَا حَيَّا ابْنَ جَعْفَرٍ قَالَ : السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ ذِى الْجَنَاحَيْنِ .

٤٢٦٥ - وعن خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ﷺ قال : لَقَدِ انْقَطَعَتْ فِى يَدِى يَوْمَ مُوتَةَ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ ، فَمَا بَقِىَ فِى يَدِى إِلاَّ صَفِيحَةٌ يَمَانِيَةٌ .

٤٢٦٦ - وعنه ﷺ قال : لَقَدْ دُقَّ فِى يَدِى يَوْمَ مُوتَةَ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ، وَصَبَرَتْ فِى يَدِى صَفِيحَةٌ لِى يَمَانِيَةٌ .

فتح مكة

كان بند من بنود صلح الحديبية ينص على :

من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، فتواثبت خزاعة ، فقالوا : نحن فى عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر ، فقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم . وكان بينهما فى الجاهلية ثأر ، فلما كانت الهدنة اغتنمها بنو بكر وقتلوا من خزاعة رجلا ، وقامت الحرب بينهما ، فأمدت قريش بنى بكر بالسلاح ، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفيًا ، وأصابوا منهم ما أصابوا ، ونقضت قريش ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق .

وخرج بديـــل بــن ورقاء فى نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ، فأخبروه بما أصيب منهم وبمعاونة قريش ، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة ، وقد وعدهم رسول الله ﷺ بالنصرة .

فى هذه الأثناء خرج أبو سفيان من مكة إلى المدينة ، بعثته قريش إلى رسول الله ﷺ ليؤكد عقد صلح الحديبية ، ويزيد فى مدة الهدنة ، وقد خافوا عاقبة الذى صنعوا مع بنى بكر .

وصل أبو سفيـــان المدينـــة ، فدخل على بنته أم حبيبـــة زوجة رسول الله ﷺ ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه . فقال : يا بنية . ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ . قال : لقد أصابك يا بنية بعدى شر ، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ ، فكلمه ، فلم يرد عليه شيئًا ، ثم ذهب إلى

أبى بكر فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ ، فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر ابن الخطاب فكلمه ، فقال : أأنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ ؟ ثم خرج فدخل على عليّ ؓ وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، فرجع خائبًا كما جاء .

وأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالاستعداد للجهاد ، وانتشر بين الناس أنه يقصد مكة ، على الرغم من إخفاء المقصد وعدم التصريح به ، بل كان يدعو اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها . وكان خطاب حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل بكة .

٣٠٠٧ – عن عليّ ؓ قال : بَعَثَنِى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ قَالَ « انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً – أى امرأة – **وَمَعَهَا كِتَابٌ ، فَخُذُوهُ مِنْهَا » . فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا** – ونتسابق ونسرع – **حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ فَقُلْنَا أَخْرِجِى الْكِتَابَ . فَقَالَتْ مَا مَعِى مِنْ كِتَابٍ . فَقُلْنَا : لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ . فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا ، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِى بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « يَا حَاطِبُ ، مَا هَذَا » ؟ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لاَ تَعْجَلْ عَلَىَّ ، إِنِّى كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِى قُرَيْشٍ ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا ، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ ، يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِى ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِى ، وَمَا فَعَلْتُ** – ذلك – **كُفْرًا وَلاَ ارْتِدَادًا وَلاَ رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَقَدْ صَدَقَكُمْ » . قَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِى أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ .**

قَالَ : « إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ » .

وكان حاطب أول جاسوس على المؤمنين وجاسوس المؤمنين هو الذى يخبر عن أحوالهم الحربية لأعدائهم ، وأمره للإمام يرى فيه رأيه . وقد صدق رسول الله ﷺ فى اعتذاره ، وعفا عنه .

وخرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة لعشر مضين من رمضان، سنة سبع من الهجرة ، وفى وصف هذه الغزوة تحكى الأحاديث الآتية : ثمان

٤٢٧٥ - عن ابْنِ عَبَّاسٍ - رضى الله عنهما - قال : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ غَزَا غَزْوَةَ الْفَتْحِ فِى رَمَضَانَ . قَالَ : وَسَمِعْتُ ابْنَ الْمُسَيَّبِ يَقُولُ مِثْلَ ذَلِكَ . وَعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ - رضى الله عنهما - قَالَ صَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْكَدِيدَ - الْمَاءَ الَّذِى بَيْنَ قُدَيْدٍ وَعُسْفَانَ - أَفْطَرَ ، فَلَمْ يَزَلْ مُفْطِرًا حَتَّى انْسَلَخَ الشَّهْرُ .

٤٢٧٦ - وعنه - رضى الله عنهما - أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ خَرَجَ فِى رَمَضَانَ مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَمَعَهُ عَشَرَةُ آلَافٍ ، وَذَلِكَ عَلَى رَأْسِ ثَمَانِ سِنِينَ وَنِصْفٍ مِنْ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ ، فَسَارَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَكَّةَ ، يَصُومُ وَيَصُومُونَ حَتَّى بَلَغَ الْكَدِيدَ - وَهْوَ مَاءٌ بَيْنَ عُسْفَانَ وَقُدَيْدٍ - أَفْطَرَ وَأَفْطَرُوا . قَالَ الزُّهْرِىُّ وَإِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الآخِرُ فَالآخِرُ .

٤٢٧٧ - وعنه - رضى الله عنهما - قَالَ : خَرَجَ النَّبِىُّ ﷺ فِى رَمَضَانَ إِلَى حُنَيْنٍ ، وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فَصَائِمٌ وَمُفْطِرٌ ، فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى رَاحِلَتِهِ دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ أَوْ مَاءٍ ، فَوَضَعَهُ عَلَى رَاحَتِهِ أَوْ عَلَى رَاحِلَتِهِ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى النَّاسِ - وأفطر - فَقَالَ الْمُفْطِرُونَ لِلصُّوَّامِ : أَفْطِرُوا .

٤٢٧٨ - وعنه - رضى الله عنهما - خَرَجَ النَّبِىُّ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ .

٤٢٧٩ – وعنه – رضى الله عنهما – قَالَ : سَافَرَ رَسُولُ اللَّه ﷺ فِى رَمَضَانَ ، فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ عُسْفَانَ ، ثُمَّ دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ فَشَرِبَ نَهَارًا ، لِيُرِيَهُ النَّاسَ ، فَأَفْطَرَ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ . قَالَ : وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ : صَامَ رَسُولُ اللَّه ﷺ فِى السَّفَرِ وَأَفْطَرَ ، فَمَنْ شَاءَ صَامَ ، وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ .

وخرج مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار ، لم يتخلف عنه منهم أحد ، وقد عميت الأخبار عن قريش ، فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ ، ولا يدرون ما هو فاعل ، لكنهم يتوقعون هجومه ، وخرج فى تلك الليالى أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار . فالتقوا بالعباس عم النبى ﷺ ، وكان مسلمًا مقيمًا بمكة من أجل السقاية ورسول الله ﷺ عنه راض .

فقال لهم العباس : واصباح قريش ، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة وقوة وغلبة قبل أن يأتوه مسلمين أو مستأمنين . إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر . وأراهم كثرة نيران الجنود .

قال أبو سفيان : ما رأيت كالليلة نيرانًا ولا عسكرًا – وكان رسول الله ﷺ قد أمر جيشه بأن يوقد كل منهم نارًا ، حتى تبدو الكثرة ، ويدخل الرعب قلب من يرى . قال أبو سفيان للعباس : فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟ قال : والله لئن ظفر بك رسول الله ﷺ ليضربن عنقك ، فاركب معى فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك ، وكان العباس يركب بغلة رسول الله ﷺ البيضاء .

فركب خلف العباس ، وكلما مرا على نار سأل أصحابها : من هذا ؟ ثم يقولون : هذا عم رسول الله ﷺ على بغلته، حتى مرا على نار عمر رضي الله عنه،

فقال : من هذا ؟ وقام إلى البغلة ، فرأى أبا سفيان على عجزها ، فقال : أبو سفيان عدو الله . الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يجرى نحو رسول الله ﷺ ، وأسرع بالبغلة العباس فسبق عمر إلى رسول الله ﷺ . فدخل العباس وأبو سفيان على رسول الله ﷺ ، ودخل على أثرهما عمر ، فقال : يا رسول الله . هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد ، فدعنى فلأضرب عنقه . قال العباس : يا رسول الله . إنى قد أجرته .

وسكت رسول الله ﷺ ، وأكثر عمر فى شأن أبى سفيان ، حتى قال العباس : مهلا يا عمر . فوالله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف . قال عمر : مهلا يا عباس . فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ، فقال رسول الله ﷺ : اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فائتنى به . فبات عندى ، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ ، فقال : ويحك يا أبا سفيان . ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئًا بعد . قال : ويحك يا أبا سفيان . ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ فقال : بأبى أنت وأمى . ما أحلمك وأكرمك وأوصلك . أما هذه فإن فى النفس منها شيئًا ، فقال له العباس : ويحك . أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تضرب عنقك . فشهد شهادة الحق وأسلم . قال العباس : يا رسول الله . إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئًا . قال : نعم . من دخل بيت أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ : يا عباس . احبسه فى

مضيق الوادى عند أنف الجبل ، حتى يمر به جنود الله فيراها ، فحبسه وأخذت الرايات تمر أمامه ، فيسأل العباس عنها واحدة واحدة حتى مرت عليه كتيبة رسول الله ﷺ ، فقال : يا عباس . ما لأحد قبل بهم ، إن ملك ابن أخيك عظيم . قال العباس : يا أبا سفيان . إنها النبوة . قال : فنعم إذن. قال له العباس : اصرخ بصوتك وبأعلى صوتك على قومك أن يتخذوا طريق النجاة ، فصرخ قائلا : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

وقسم رسول الله ﷺ جيشه إلى جيوش تدخل مكة من جهات مختلفة .

أمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة بجيش ، وأمر الزبير بن العوام أن يدخل من أعلى مكة بجيش ، وأمره أن يغرز رايته راية رسول الله ﷺ بالحجون ، وضربت له قبة هناك .

وأمر سعد بن عبادة أن يدخل من كداء بجيشه ، وأوصى رسول الله ﷺ جميع القادة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، لكنه استثنى نفرًا من قريش أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة منهم :

١. عبد الله بن سعد : وكان قد أسلم ، وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحى ، فارتد مشركًا ، وانضم لقريش ، واتهم رسول الله ﷺ بأنه كان يؤلف القرآن من عنده . فكان أن فر إلى عثمان بن عفان – وكان أخاه من الرضاعة ، فغيبه وأخفاه حتى اطمأن الناس ، فأتى به إلى رسول الله ﷺ وطلب له الأمان ، فمنحه ، ثم أسلم وعاش حتى ولاه عمر بعض الأعمال ، ثم ولاه عثمان بعد عمر .

٢. وعبد الله بن أخطل . وإنما أمر بقتله لأنه كان مسلمًا ، فبعثه

رسول الله ﷺ ليجمع الصدقات ، وبعث معه رجلا من الأنصار ، وبعث معه عبدًا مسلمًا يخدمه ، فأمر العبد أن يذبح له تيسًا ، وأن يعد له طعامًا ، فنام العبد ولم يعمل شيئًا ، فقتله ، وكان له جاريتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ ، فأمر رسول الله ﷺ بقتلهما معه ، فقتلت إحداهما ، وهربت الأخرى ، حتى استؤمن لها رسول الله ﷺ فأمنها .

٣. ولجأ إلى أم هانئ بنت أبى طالب رجلان من أحمائها ، هما الحارث بن هشام ، وزهير بن أبى أمية بن المغيرة ، فأجارتهما ، فدخل عليها أخوها على بن أبى طالب ، يريد قتلهما فأغلقت عليهما باب بيتها ، وجاءت رسول الله ﷺ ، وقالت له : يا رسول الله ﷺ . إن ابن أمى وأبى يريد قتل رجلين أجرتهما ، فقال لها رسول الله ﷺ : قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ .

ولم يقاتل أحد من القادة غير مناوشة بسيطة حصلت مع خالد بن الوليد أصيب فيها اثنا عشر رجلا من المشركين .

ولما هدأت مكة ، واطمأن الناس خرج رسول الله ﷺ حتى جاء البيت الحرام ، فطاف بالكعبة سبعًا على راحلته ، يستلم الحجر الأسود والركن بعصا كانت فى يده ، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له ، فقام علىّ على بابها ، فقال : لا إله إلا الله . وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ثم دخل الكعبة ومعه بلال ، والأحاديث الآتية تحكى لنا ما حدث :

٤٢٨٠ - عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : لَمَّا سَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ فَبَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا ، خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ وَبُدَيْلُ

ابْنُ وَرْقَاءَ يَلْتَمِسُونَ الْخَبَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَقْبَلُوا يَسِيرُونَ حَتَّى أَتَوْا مَرَّ الظَّهْرَانِ ، فَإِذَا هُمْ بِنِيرَانٍ كَأَنَّهَا نِيرَانُ عَرَفَةَ ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : مَا هَذِهِ لَكَأَنَّهَا نِيرَانُ عَرَفَةَ . فَقَالَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ : نِيرَانُ بَنِي عَمْرٍو . فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : عَمْرٌو أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ . فَرَآهُمْ نَاسٌ مِنْ حَرَسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَدْرَكُوهُمْ فَأَخَذُوهُمْ ، فَأَتَوْا بِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ أَبُو سُفْيَانَ ، فَلَمَّا سَارَ قَالَ لِلْعَبَّاسِ : « احْبِسْ أَبَا سُفْيَانَ عِنْدَ حَطْمِ الْخَيْلِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ » . فَحَبَسَهُ الْعَبَّاسُ ، فَجَعَلَتِ الْقَبَائِلُ تَمُرُّ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ تَمُرُّ كَتِيبَةً كَتِيبَةً عَلَى أَبِي سُفْيَانَ ، فَمَرَّتْ كَتِيبَةٌ قَالَ : يَا عَبَّاسُ . مَنْ هَذِهِ ؟ قَالَ : هَذِهِ غِفَارُ . قَالَ : مَا لِي وَلِغِفَارَ . ثُمَّ مَرَّتْ جُهَيْنَةُ ، قَال مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ مَرَّتْ سَعْدُ بْنُ هُذَيْمٍ ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَمَرَّتْ سُلَيْمُ ، فَقَالَ : مِثْلَ ذَلِكَ ، حَتَّى أَقْبَلَتْ كَتِيبَةٌ لَمْ يَرَ مِثْلَهَا ، قَالَ : مَنْ هَذِهِ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ الأَنْصَارُ عَلَيْهِمْ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ مَعَهُ الرَّايَةُ . فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ يَا أَبَا سُفْيَانَ الْيَوْمُ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ ، الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الْكَعْبَةُ . فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : يَا عَبَّاسُ حَبَّذَا يَوْمُ الذِّمَارِ . ثُمَّ جَاءَتْ كَتِيبَةٌ ، وَهِيَ أَقَلُّ الْكَتَائِبِ ، فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ، وَرَايَةُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ ، فَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَبِي سُفْيَانَ قَالَ : أَلَمْ تَعْلَمْ مَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ؟ قَالَ : « مَا قَالَ » ؟ قَالَ : كَذَا وَكَذَا . فَقَالَ : « كَذَبَ سَعْدٌ، وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللَّهُ فِيهِ الْكَعْبَةَ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ » . قَالَ : وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُرْكَزَ رَايَتُهُ بِالْحَجُونِ . قَالَ عُرْوَةُ : وَأَخْبَرَنِي نَافِعُ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ سَمِعْتُ الْعَبَّاسَ يَقُولُ لِلزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، هَا هُنَا أَمَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَرْكُزَ الرَّايَةَ ؟ قَالَ : وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ أَنْ يَدْخُلَ مِنْ أَعْلَى مَكَّةَ مِنْ كَدَاءٍ ، وَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ كُدَا ، فَقُتِلَ مِنْ خَيْلِ خَالِدٍ يَوْمَئِذٍ رَجُلَانِ : حُبَيْشُ بْنُ الأَشْعَرِ وَكُرْزُ بْنُ جَابِرٍ الْفِهْرِيُّ .

٤٢٨١ – وعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُغَفَّلٍ ﷺ قال : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ عَلَى نَاقَتِهِ ، وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَتْحِ يُرَجِّعُ ، وَقَالَ : لَوْلاَ أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ حَوْلِى لَرَجَّعْتُ كَمَا رَجَّعَ .

٤٢٨٢ – وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ – رضى الله عنهما– قَالَ زَمَنَ الْفَتْحِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيْنَ تَنْزِلُ غَدًا ؟ قَالَ النَّبِىُّ ﷺ : « وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ مَنْزِلٍ » . ولم ينزل الرسول ﷺ فى بيته لأنه كان قد بيع .

٤٢٨٣ – ثُمَّ قَالَ : « لاَ يَرِثُ الْمُؤْمِنُ الْكَافِرَ ، وَلاَ يَرِثُ الْكَافِرُ الْمُؤْمِنَ » . قِيلَ لِلزُّهْرِىِّ : وَمَنْ وَرِثَ أَبَا طَالِبٍ ؟ قَالَ : وَرِثَهُ عَقِيلٌ وَطَالِبٌ . مات أبو طالب قبل الهجرة ، ولم يرثه على ولا جعفر لإسلامهما، وورثه عقيل وطالب ، وكانا كافرين ، ثم مات طالب قبل بدر ، فوضع عقيل يده على ما ترك أبو طالب ، ثم باع تلك الدور كلها . وكان أبو طالب قد وضع يده على ما خلف عبد الله والد النبى ﷺ ؛ لأنه كان شقيقه ، وكان النبى ﷺ عند أبى طالب بعد موت جده عبد المطلب .

٤٢٨٤ – وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْزِلُنَا – إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، إِذَا فَتَحَ اللَّهُ – الْخَيْفُ – هو الموقع الذى كتبوا فيه صحيفة مقاطعة بنى هاشم – حَيْثُ تَقَاسَمُوا عَلَى الْكُفْرِ » .

٤٢٨٥ – وعنه ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَرَادَ حُنَيْنًا : « مَنْزِلُنَا غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِخَيْفِ بَنِى كِنَانَةَ ، حَيْثُ تَقَاسَمُوا عَلَى الْكُفْرِ ».

٤٢٨٧ – وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : دَخَلَ النَّبِىُّ ﷺ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُّونَ وَثَلاَثُمِائَةَ نُصُبٍ ، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِى يَدِهِ وَيَقُولُ : « جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، جَاءَ الْحَقُّ ، وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ » .

٤٢٨٨ – وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضى الله عنهما – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

وسلم لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ أَبَى أَنْ يَدْخُلَ الْبَيْتَ وَفِيهِ الآلِهَةُ ، فَأَمَرَ بِهَا فَأُخْرِجَتْ ، فَأُخْرِجَ صُورَةُ إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْمَاعِيلَ فِى أَيْدِيهِمَا مِنَ الأَزْلامِ، فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ لَقَدْ عَلِمُوا مَا اسْتَقْسَمَا بِهَا قَطُّ » . ثُمَّ دَخَلَ الْبَيْتَ ، فَكَبَّرَ فِى نَوَاحِى الْبَيْتِ ، وَخَرَجَ وَلَمْ يُصَلِّ فِيهِ .

٤٢٨٩ – عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ – رضى الله عنهما – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْبَلَ يَوْمَ الْفَتْحِ مِنْ أَعْلَى مَكَّةَ عَلَى رَاحِلَتِهِ ، مُرْدِفًا أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَمَعَهُ بِلالٌ وَمَعَهُ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ ، مِنَ الْحَجَبَةِ حَتَّى أَنَاخَ فِى الْمَسْجِدِ ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِىَ بِمِفْتَاحِ الْبَيْتِ ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَبِلالٌ وَعُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ ، فَمَكَثَ فِيهِ نَهَارًا طَوِيلا ثُمَّ خَرَجَ ، فَاسْتَبَقَ النَّاسُ ، فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ ، فَوَجَدَ بِلالا وَرَاءَ الْبَابِ قَائِمًا ، فَسَأَلَهُ أَيْنَ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ فَأَشَارَ لَهُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِى صَلَّى فِيهِ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : فَنَسِيتُ أَنْ أَسْأَلَهُ كَمْ صَلَّى مِنْ سَجْدَةٍ ؟ .

وقام رسول الله ﷺ على باب الكعبة وخطب : أيها الناس . يا معشر قريش . ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيرًا . أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فقال : لا أقول لكم إلا ما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم . اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وجاءه على ﷺ بمفاتيح الكعبة وقال : اجمع لنا يا رسول الله الحجابة والسقاية ، فنزلت : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [1] فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن طلحة ، فأعطاه مفتاح الكعبة ، وقال : خذها خالدة مخلدة . إنى لم أدفعها إليكم ، ولكن الله دفعها إليكم ، ولا ينزعها منكم إلا

---

[1] سورة النساء – الآية : ٥٨ .

ظالم ، فكانت المفاتيح عند بنى شيبة حتى اليوم ، وكانوا سدنة الكعبة حتى اليوم .

وكان فى خطبته صلى الله عليه وسلم ما جاء فى الحديث :

٤٣١٣ - عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّه قَامَ يَوْمَ الْفَتْحِ فَقَالَ : « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، فَهِىَ حَرَامٌ بِحَرَامِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِى ، وَلاَ تَحِلُّ لأَحَدٍ بَعْدِى ، وَلَمْ تَحْلِلْ لِى إِلاَّ سَاعَةً مِنَ الدَّهْرِ ، لاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا ، وَلاَ يُعْضَدُ شَوْكُهَا ، وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَهَا وَلاَ تَحِلُّ لُقَطَتُهَا إِلاَّ لِمُنْشِدٍ » . فَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ : إِلاَّ الإِذْخِرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ لاَ بُدَّ مِنْهُ لِلْقَيْنِ وَالْبُيُوتِ ، فَسَكَتَ ثُمَّ قَالَ : « إِلاَّ الإِذْخِرَ فَإِنَّهُ حَلاَلٌ » .

إسلام أبى قحافة

وبعد الفتح ، وبعد هدوء الناس واطمئنانهم جاء أبو بكر بأبيه أبى قحافة ، جاء يقوده ، فقد كف بصره ، وتشعث وابيض شعر رأسه ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه ؟ قال أبو بكر : يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت، فأجلسه بين يديه ، ثم مسح صدره ، ثم قال له : أسلم . فأسلم . فقال صلى الله عليه وسلم : غيــروا هذا من شعره . أى اصبغوا شعره ورجلوه وسرحوه .

وأسلم كثير من أهل مكة ، ونزل قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣ ﴾ (٢) .

وأقام رسول الله ﷺ بمكة خمس عشرة ليلة ، بعث فيها خالد بن الوليد على رأس فريق من المسلمين إلى العزى ، صنم بنخلة فى بيت يعظمه هذا الحى من قريش وكنانة ومضر ، فانتهى إليها ، فهدمها ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ .

وفيها حطم رسول الله ﷺ الأصنام التى كانت بداخل الكعبة وحولها ، والأصنام التى كانت على الصفا والمروة .

---

(٢) سورة النصر – الآيات : ١– ٣ .

غزوة حنين

وبلغ صلى الله عليه وسلم أن هوازن حقدت على رسول الله ﷺ فتحه مكة ، فأزمعت على قتاله ، وأخذت تستعد بالسلاح وبالتجمعات الأخرى ، فجمعت من هرب من مكة ، وجمعت ثقيفًا كلها من الطائف ، واجتمع معهم قبائل نصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بنى هلال .

لما بلغ رسول الله ﷺ ذلك أرسل إليهم عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى ليأتيه بخبرهم فدخل عليهم ، وسمع منهم أنهم أجمعوا على حرب رسول الله ﷺ ، فأخبر رسول الله ﷺ الخبر .

وفى اليوم السادس من شوال خرج رسول الله ﷺ بجيش قوامه اثنا عشر ألفًا : العشرة الآلاف الذين كانوا معه فى فتح مكة ، وألفان من الأعراب والطلقاء والمؤلفة قلوبهم ، خرجوا يرجون الغنائم .

وكان عند صفوان بن أمية دروعًا وسلاحًا يكفى مائة مقاتل ، فطلبها منه صلى الله عليه وسلم إعارة مردودة مضمونة – فوافق وهو مشرك .

وعلمت هوازن بخروج الرسول ﷺ لقتالهم ، فاستعدوا أكبر استعداد ، وجاءوا بأحسن صفوف ، صفوا الخيل ، ثم المقاتلة ، ثم النساء من وراء ذلك ثم الغنم ثم النعم . وتهيئوا فى مضايق الوادى ، ومنحياته ، وكمنوا فى فجواته .

وأقبل المسلمون فى عماية الصبح ، وهم لا يعلمون مداخل الوادى ومخارجه ، وكانت هوازن قومًا رماة ، لا يخطئ لهم سهم ، فاستقبلت خيلهم المسلمين ، وحمل رماتهم عليهم فانكشفوا وانهزموا ، وفروا فى مضايق الجبل ، ولم يبق مع الرسول ﷺ سوى مائة مقاتل . يصور هذا المنظر الأحاديث الآتية :

٤٣١٤ – عن إسمَاعيل قال : رَأَيْتُ بيَدِ ابنِ أَبى أَوْفَى ضَرْبَةً ، قَالَ ضُرِبْتُهَا مَعَ النَّبِىِّ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ . قُلْتُ : شَهِدْتَ حُنَيْنًا ؟ قَالَ : قَبْلَ ذَلِكَ .

٤٣١٥ – وعن الْبَرَاءَ ﷺ وجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا أَبَا عُمَارَةَ ، أَتَوَلَّيْتَ يَوْمَ حُنَيْنٍ ؟ فَقَالَ أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ عَلَى النَّبِىِّ ﷺ أَنَّهُ لَمْ يُوَلِّ ، ولَكِنْ عَجِلَ سَرَعَانُ الْقَوْمِ ، فَرَشَقَتْهُمْ هَوَازِنُ ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ آخِذٌ بِرَأْسِ بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ يَقُولُ : « أَنَا النَّبِىُّ لاَ كَذِبْ ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ » .

٤٣١٦ – وعَنْ أَبِى إِسْحَاقَ قِيلَ لِلْبَرَاءِ وَأَنَا أَسْمَعُ أَوَلَّيْتُمْ مَعَ الرسول ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ فَقَالَ أَمَّا النَّبِىُّ ﷺ فَلاَ ، كَانُوا رُمَاةً فَقَالَ « أَنَا النَّبِىُّ لاَ كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ » .

٤٣١٧ – وعن الْبَرَاءَ ﷺ – وَسَأَلَهُ رَجُلٌ مِنْ قَيْسٍ – أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ ؟ فَقَالَ: لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَفِرَّ ، كَانَتْ هَوَازِنُ رُمَاةً ، وَإِنَّا لَمَّا حَمَلْنَا عَلَيْهِمِ انْكَشَفُوا ، فَأَكْبَبْنَا عَلَى الْغَنَائِمِ ، فَاسْتُقْبِلْنَا بِالسِّهَامِ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ ، وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ آخِذٌ بِزِمَامِهَا وَهُوَ يَقُولُ : « أَنَا النَّبِىُّ لاَ كَذِبْ » . قَالَ إِسْرَائِيلُ وَزُهَيْرٌ نَزَلَ النَّبِىُّ ﷺ عَنْ بَغْلَتِهِ .

٤٣٣٧ – وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ أَقْبَلَتْ هَوَازِنُ وَغَطَفَانُ وَغَيْرُهُمْ بِنَعَمِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ ، وَمَعَ النَّبِىِّ ﷺ عَشَرَةُ آلاَفٍ وَمِنَ الطُّلَقَاءِ ، فَأَدْبَرُوا عَنْهُ حَتَّى بَقِىَ وَحْدَهُ ، فَنَادَى يَوْمَئِذٍ نِدَاءَيْنِ لَمْ يَخْلِطْ بَيْنَهُمَا ، الْتَفَتَ عَنْ يَمِينِهِ ، فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ » . قَالُوا : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَبْشِرْ نَحْنُ مَعَكَ . ثُمَّ الْتَفَتَ عَنْ يَسَارِهِ ، فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ » . قَالُوا : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَبْشِرْ نَحْنُ مَعَكَ . وَهُوَ عَلَى بَغْلَةٍ بَيْضَاءَ .

وأخذ رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الأعداء ويمسك بزمامها ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعمه العباس وهو يقول : أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب ، ثم قال للعباس - وكان جهورى الصوت - ناد أصحاب الشجرة فنادى بأعلى صوته : أين أصحاب الشجرة ؟ فانعطفوا نحو الصوت ، كما تنعطف البقر على أولادها ، يقولون : لبيك . لبيك . ونادى بأعلى صوته : يا معشر الأنصار ، يا أصحاب سورة البقرة ، فعاد الفارون إلى الميدان ، فاشتد القتال ، وأشرف رسول الله ﷺ على المعركة ، ونزل عن البغلة ، وأخذ قليلا من التراب ونثره فى وجوهم وهو يقول : انهزموا ورب الكعبة . وأمد الله المؤمنين بجنود من عنده ، فانهزم المشركون وفروا ، وولوا مدبرين ، تاركين غنائم كثيرة .

وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [٣] .

جمع المسلمون غنائم حنين ، وكانت نحو أربعة وعشرين ألف بعير.

([٣]) سورة التوبة - الآيات : ٢٥- ٢٧ .

وأكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعين أوقية من الفضة ، وسبايا كثيرة نساء وأطفال .

وأمر رسول الله ﷺ أن تودع هذه الغنائم بالجعرانة ، فتحبس هناك حتى يرى رسول الله ﷺ قسمتها – والجعرانة مكان بين الطائف ومكة ، وهى إلى مكة أقرب .

سرية أوطاس

لما انهزمت هوازن، وكانت معهم ثقيف أهل الطائف، تفرقوا، فذهبت فرقة منهم إلى الطائف ، وتحصنوا بها ، وسارت فرقة أخرى ، فعسكروا بمكان قريب من هوازن ، يسمى أوطاس ، فبعث رسول الله ﷺ سرية إلى أوطاس أمر عليها أبا عامر الأشعرى ، يحكى هذه السرية الحديث :

٤٣٢٣ - عَنْ أَبِى مُوسَى ﷺ قَالَ : لَمَّا فَرَغَ النَّبِىُّ ﷺ مِنْ حُنَيْنٍ بَعَثَ أَبَا عَامِرٍ عَلَى جَيْشٍ إِلَى أَوْطَاسٍ ، فَلَقِىَ دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّةِ ، فَقُتِلَ دُرَيْدٌ وَهَزَمَ اللَّهُ أَصْحَابَهُ . قَالَ أَبُو مُوسَى : وَبَعَثَنِى مَعَ أَبِى عَامِرٍ ، فَرُمِىَ أَبُو عَامِرٍ فِى رُكْبَتِهِ ، رَمَاهُ جُشَمِىٌّ بِسَهْمٍ فَأَثْبَتَهُ فِى رُكْبَتِهِ ، فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ : يَا عَمِّ مَنْ رَمَاكَ ؟ فَأَشَارَ إِلَى أَبِى مُوسَى ، فَقَالَ : ذَاكَ قَاتِلِى الَّذِى رَمَانِى . فَقَصَدْتُ لَهُ فَلَحِقْتُهُ ، فَلَمَّا رَآنِى وَلَّى ، فَاتَّبَعْتُهُ ، وَجَعَلْتُ أَقُولُ لَهُ أَلاَ تَسْتَحِى ، أَلاَ تَثْبُتُ . فَكَفَّ فَاخْتَلَفْنَا ضَرْبَتَيْنِ بِالسَّيْفِ فَقَتَلْتُهُ ، ثُمَّ قُلْتُ لأَبِى عَامِرٍ : قَتَلَ اللَّهُ صَاحِبَكَ . قَالَ : فَانْزِعْ هَذَا السَّهْمَ ، فَنَزَعْتُهُ فَنَزَا مِنْهُ الْمَاءُ . قَالَ : يَا ابْنَ أَخِى أَقْرِئِ النَّبِىَّ ﷺ السَّلاَمَ ، وَقُلْ لَهُ : اسْتَغْفِرْ لِى . وَاسْتَخْلَفَنِى أَبُو عَامِرٍ عَلَى النَّاسِ ، فَمَكَثَ يَسِيرًا ، ثُمَّ مَاتَ ، فَرَجَعْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى النَّبِىِّ ﷺ فِى بَيْتِهِ عَلَى سَرِيرٍ مُرْمَلٍ وَعَلَيْهِ فِرَاشٌ قَدْ أَثَّرَ رِمَالُ السَّرِيرِ بِظَهْرِهِ وَجَنْبَيْهِ ، فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِنَا وَخَبَرِ أَبِى عَامِرٍ ، وَقَالَ : قُلْ لَهُ اسْتَغْفِرْ لِى ، فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبِى عَامِرٍ » . وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : « اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ مِنَ النَّاسِ » . فَقُلْتُ : وَلِى فَاسْتَغْفِرْ . فَقَالَ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ ذَنْبَهُ ، وَأَدْخِلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُدْخَلاً كَرِيمًا » . قَالَ أَبُو بُرْدَةَ : إِحْدَاهُمَا لأَبِى عَامِرٍ ، وَالأُخْرَى لأَبِى مُوسَى .

حصار الطائف

ثم توجه رسول الله ﷺ هو وعسكره إلى الطائف فحاصرهم ، وكانوا قد أعدوا أنفسهم لحصار طويل ، وجمعوا فى حصونهم ما يكفيهم سنة ، وأعدوا قطعًا من الحديد يحمونها فى النار ، ويرمونها من أعلى على المسلمين ، ويرشقونهم من فوق الحصون بالسهام ، يصور هذا الموقف الحديث :

٤٣٢٥ - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - قَالَ : لَمَّا حَاصَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الطَّائِفَ فَلَمْ يَنَلْ مِنْهُمْ شَيْئًا قَالَ : « إِنَّا قَافِلُونَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ » . فَثَقُلَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا : نَذْهَبُ وَلاَ نَفْتَحُهُ - وَقَالَ مَرَّةً نَقْفُلُ - فَقَالَ : « اغْدُوا عَلَى الْقِتَالِ » . فَغَدَوْا فَأَصَابَهُمْ جِرَاحٌ فَقَالَ : « إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ » . فَأَعْجَبَهُمْ فَضَحِكَ النَّبِىُّ ﷺ ، وَقَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً : فَتَبَسَّمَ .

عزَّ على المسلمين أن يحاصروا ثقيفًا أربعين يومًا ، وقيل : عشرين، وقيل : خمسة عشرة يومًا ثم يرجعون دون فتح ، فلم يعجبهم اقتراح العودة ، فلما سمح لهم بالقتال غدًا ، وأصيب عدد كبير من المسلمين واقترح الرجوع فرحوا به وأسرعوا إليه .

- **غنائم حنين**

لما رجع رسول الله ﷺ هو وأصحابه من الطائف قسم غنائم حنين يصور ذلك الأحاديث الآتية :

٤٣٣٠ - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ قَالَ : لَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ قَسَمَ فِى النَّاسِ فِى الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَلَمْ يُعْطِ الأَنْصَارَ شَيْئًا ، فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا إِذْ لَمْ يُصِبْهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ:

« يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَّلا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِى ؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِى ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِى » ؟ كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ . قَالَ : « مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ » ؟ قَالَ كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ . قَالَ : « لَوْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ جِئْتَنَا كَذَا وَكَذَا . أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِىِّ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ؟ لَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِىَ الأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا ، الأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِى أَثَرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِى عَلَى الْحَوْضِ » .

٤٣٣١ – وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : قَالَ نَاسٌ مِنَ الأَنْصَارِ حِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مَا أَفَاءَ مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ ، فَطَفِقَ النَّبِىُّ ﷺ يُعْطِى رِجَالا الْمِائَةَ مِنَ الإِبِلِ فَقَالُوا: يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُعْطِى قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا ، وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ . قَالَ أَنَسٌ: فَحُدِّثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَقَالَتِهِمْ ، فَأَرْسَلَ إِلَى الأَنْصَارِ فَجَمَعَهُمْ فِى قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ وَلَمْ يَدْعُ مَعَهُمْ غَيْرَهُمْ ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا قَامَ النَّبِىُّ ﷺ فَقَالَ : « مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِى عَنْكُمْ » ؟ فَقَالَ فُقَهَاءُ الأَنْصَارِ : أَمَّا رُؤَسَاؤُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا ، وَأَمَّا نَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ فَقَالُوا : يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُعْطِى قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا ؟ وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ ؟ فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ : « فَإِنِّى أُعْطِى رِجَالا حَدِيثِى عَهْدٍ بِكُفْرٍ ، أَتَأَلَّفُهُمْ ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالأَمْوَالِ وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِىِّ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ ؟ فَوَاللَّهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ » . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ رَضِينَا . فَقَالَ لَهُمُ النَّبِىُّ ﷺ : « سَتَجِدُونَ أُثْرَةً شَدِيدَةً ، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوُا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ فَإِنِّى عَلَى الْحَوْضِ » . قَالَ أَنَسٌ : فَلَمْ يَصْبِرُوا .

٤٣٣٢ -- وعنه ﷺ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمَ فَتْحِ مكَّةَ قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَنَائِمَ بَيْنَ قُرَيْشٍ . فَغَضِبَتِ الأَنْصَارُ قَالَ النَّبِىُّ ﷺ : « أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا ، وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ » ؟ قَالُوا : بَلَى . قَالَ : « لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا أَوْ شِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِىَ الأَنْصَارِ أَوْ شِعْبَهُمْ » .

٤٣٣٣ – وعنه ﷺ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمَ حُنَيْنٍ الْتقَى هَوَازِنُ وَمَعَ النَّبِىِّ ﷺ عَشَرَةُ آلافٍ وَالطُّلَقَاءُ فَأَدْبَرُوا قَالَ : « يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ » . قَالُوا : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ، لَبَّيْكَ نَحْنُ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَنَزَلَ النَّبِىُّ ﷺ فَقَالَ : « أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ » . فَانْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ ، فَأَعْطَى الطُّلَقَاءَ وَالْمُهَاجِرِينَ وَلَمْ يُعْطِ الأَنْصَارَ شَيْئًا فَقَالُوا ، فَدَعَاهُمْ فَأَدْخَلَهُمْ فِى قُبَّةٍ فَقَالَ : « أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ ، وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ » ؟ فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ : « لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَسَلَكَت الأَنْصَارُ شِعْبًا لاخْتَرْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ » .

٤٣٣٤ – وعنه ﷺ قَالَ : جَمَعَ النَّبِىُّ ﷺ نَاسًا مِنَ الأَنْصَارِ ، فَقَالَ : « إِنَّ قُرَيْشًا حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ ، وَإِنِّى أَرَدْتُ أَنْ أَجْبُرَهُمْ وَأَتَأَلَّفَهُمْ أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى بُيُوتِكُمْ » ؟ قَالُوا : بَلَى . قَالَ : « لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَسَلَكَت الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِىَ الأَنْصَارِ أَوْ شِعْبَ الأَنْصَارِ » .

٤٣٣٥ – وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : لَمَّا قَسَمَ النَّبِىُّ ﷺ قِسْمَةَ حُنَيْنٍ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ مَا أَرَادَ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ . فَأَتَيْتُ النَّبِىَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ ثُمَّ قَالَ : « رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى مُوسَى ، لَقَدْ أُوذِىَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ » .

٤٣٣٦ – وعنه ﷺ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ النَّبِىُّ ﷺ نَاسًا ،

أَعْطَى الأَقْرَعَ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَأَعْطَى نَاسًا ، فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أُرِيدَ بِهَذِهِ الْقِسْمَةِ وَجْهُ اللَّهِ . فَقُلْتُ : لأُخْبِرَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ : « رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى . قَدْ أُوذِىَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ » .

وبعد أن وزع صلى الله عليه وسلم الغنائم جاءه وفد هوازن مسلمين يطلبون رد أموال الغنيمة والسبايا وكان الحديث :

٤٣١٨ – عن مَرْوَانَ وَالْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ – رضى الله عنهما – أَخْبَرَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ حِينَ جَاءَهُ وَفْدُ هَوَازِنَ مُسْلِمِينَ ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَسَبْيَهُمْ ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَعِى مَنْ تَرَوْنَ ، وَأَحَبُّ الْحَدِيثِ إِلَىَّ أَصْدَقُهُ ، فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ إِمَّا السَّبْىَ ، وَإِمَّا الْمَالَ ، وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ بِكُمْ » . وَكَانَ أَنْظَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، حِينَ قَفَلَ مِنَ الطَّائِفِ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ غَيْرُ رَادٍّ إِلَيْهِمْ إِلاَّ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ قَالُوا: فَإِنَّا نَخْتَارُ سَبْيَنَا . فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِى الْمُسْلِمِينَ ، فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ : « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ ، وَإِنِّى قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ ذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ ، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ ، حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِىءُ اللَّهُ عَلَيْنَا ، فَلْيَفْعَلْ » . فَقَالَ النَّاسُ : قَدْ طَيَّبْنَا ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّا لاَ نَدْرِى مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ فِى ذَلِكَ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعَ إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ » . فَرَجَعَ النَّاسُ فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ قَدْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا . هَذَا الَّذِى بَلَغَنِى عَنْ سَبْىِ هَوَازِنَ .

وكان مما قاله خطباؤهم :

امنن علينا رسـول الله فى كرم *** فإنـك المرء نرجوه وندخر

امنن على نسوة قد كنت ترضعها *** إذ فوك تملؤه من محضها الدرر

يقصدون بذلك إن إرضاعه من حليمة السعدية وهى منهم ، ولذلك قال أحدهم :

يا رسول الله ، ما فى هذه الحظائر إلا أمهاتك وخالاتك وحواضنك ومرضعاتك ، فامنن علينا .

وفى كتب السير : انصرف رسول الله ﷺ من الطائف فى شوال إلى الجعرانة ، وبها سبى هوازن ، وقدم عليه وفد هوازن مسلمين ، فيهم تسعة نفر من أشرافهم ، فأسلموا وبايعوا ، ثم كلموه ، فقالوا : يا رسول الله . إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات والعمات والخالات ، وهن مخازى الأقوام. فقال : سأطلب لكم ، وقد وقعت المقاسم ، فأى الأمرين أحب إليكم ؟ السبى أم المال ؟ قالوا : خيرتنا يا رسول الله بين الحسب والمال ، فالحسب أحب إلينا ، ولا نتكلم فى شاة ولا بعير ، فقال : أما الذى لبنى هاشم فهو لكم ، وسوف أكلم لكم المسلمين . فكلموهم أنتم معى ، وأظهروا إسلامكم ، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر قاموا فتكلم خطباؤهم ، فأبلغوا ، وأعلنوا رغبتهم فى رد سبيهم ، ثم قام رسول الله ﷺ حين فرغوا فشفع لهم وحض المسلمين على إجابة مطلبهم ، وقال : لقد رددت الذى لبنى هاشم عليهم . فمن أحب منكم أن يعطى غير مكره ، عن طيب نفس منه من غير عوض فليفعل ، ومن أحب أن يعطى بعوض فعلىّ فداؤه . فأعطى الناس ما بأيديهم ، إلا قليلا من الناس سألوا الفداء ، وفى رواية "فقال المهاجرون : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وقالت الأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عيينة بن حصن : وأما أنا وبنو فزارة فلا ، قال العباس بن مرداس : أما

أنا وبنو سليم فلا ، فقالت بنو سليم : بل ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : من تمسك منكم بحقه فله بكل إنسان ست فرائض – أى ست من الإبل – من أول فيء نصيبه ، فردوا إلى الناس نساءهم وأولادهم .

وعاد رسول الله ﷺ هو وأصحابه إلى المدينة .

السرية التى جهة نجد

ثم أرسل صلى الله عليه وسلم سرية قوامها خمسة وعشرون بقيادة أبى قتادة إلى غطفان ، فغنموا مائتى بعير ، وألفى شاة ، يحدث عن هذه السرية الحديث :

٤٣٣٨ - عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رضى الله عنهما - قَالَ : بَعَثَ النَّبِىُّ ﷺ سَرِيَّةً قِبَلَ نَجْدٍ ، فَكُنْتُ فِيهَا ، فَبَلَغَتْ سِهَامُنَا اثْنَىْ عَشَرَ بَعِيرًا ، وَنُفِّلْنَا بَعِيرًا بَعِيرًا ، فَرَجَعْنَا بِثَلاَثَةَ عَشَرَ بَعِيرًا .

بعث خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة

٤٣٣٩ - عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ - رضى الله عنهما - قَالَ : بَعَثَ النَّبِىُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِى جَذِيمَةَ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا : أَسْلَمْنَا . فَجَعَلُوا يَقُولُونَ : صَبَأْنَا ، صَبَأْنَا . فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ ، وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ أَمَرَ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا أَسِيرَهُ فَقُلْتُ وَاللَّهِ لاَ أَقْتُلُ أَسِيرِى ، وَلاَ يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِى أَسِيرَهُ ، حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِىِّ ﷺ فَذَكَرْنَاهُ ، فَرَفَعَ النَّبِىُّ ﷺ يَدَهُ فَقَالَ « اللَّهُمَّ إِنِّى أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ » . مَرَّتَيْنِ .

بعثه فى ثلاثمائة وخمسين من المهاجرين والأنصار ، بعثهم دعاة لا مقاتلين ، بعثهم بعد فتح مكة ، وكانوا بأسفل مكة . قالوا : صبأنا فهم منهم أن معناها أسلمنا ؛ لأن قريشًا كانت تقول : صبأ لكل من أسلم . ولأن معنى صبأنا خرجنا من دين إلى دين .

سرية عبد الله بن حذافة السهمى

٤٣٤٠ - عَنْ عَلِىٍّ ﷺ قَالَ بَعَثَ النَّبِىُّ ﷺ سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ رَجُلا مِنَ الأَنْصَارِ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ ، فَغَضِبَ فَقَالَ أَلَيْسَ أَمَرَكُمُ النَّبِىُّ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِى . قَالُوا بَلَى . قَالَ فَاجْمَعُوا لِى حَطَبًا . فَجَمَعُوا ، فَقَالَ أَوْقِدُوا نَارًا . فَأَوْقَدُوهَا ، فَقَالَ : ادْخُلُوهَا . فَهَمُّوا ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا ، وَيَقُولُونَ فَرَرْنَا إِلَى النَّبِىِّ ﷺ مِنَ النَّارِ . فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتِ النَّارُ ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ ، فَبَلَغَ النَّبِىَّ ﷺ فَقَالَ « لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، الطَّاعَةُ فِى الْمَعْرُوفِ » .

وحاصل هذه القصة أن هذا القائد كان به دعابة ، فقال لهم : أليس لى عليكم السمع والطاعة ؟ قالوا : بلى . قال : أعزم عليكم بحقى وطاعتى لما تواثبتم فى هذه النار ، وكانوا ثلاثمائة ، فلما ترددوا ومنع بعضهم بعضًا ، قال : احبسوا أنفسكم ، فإنما كنت أضحك معكم . كان عليهم أن يستحضروا : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وأن طاعة ولى الأمر مخصوصة بكونها فى المعروف .

بعث أبى موسى ومعاذ إلى اليمن

٤٣٤١ و ٤٣٤٢ – عَنْ أَبِى بُرْدَةَ ﷺ قَالَ : بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا مُوسَى وَمُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى الْيَمَنِ ، قَالَ : وَبَعَثَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى مِخْلاَفٍ قَالَ : وَالْيَمَنُ مِخْلاَفَانِ ثُمَّ قَالَ: « يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا ، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا » . فَانْطَلَقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى عَمَلِهِ ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِذَا سَارَ فِى أَرْضِهِ كَانَ قَرِيبًا مِنْ صَاحِبِهِ أَحْدَثَ بِهِ عَهْدًا ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، فَسَارَ مُعَاذٌ فِى أَرْضِهِ قَرِيبًا مِنْ صَاحِبِهِ أَبِى مُوسَى ، فَجَاءَ يَسِيرُ عَلَى بَغْلَتِهِ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهِ ، وَإِذَا هُوَ جَالِسٌ ، وَقَدِ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ ، وَإِذَا رَجُلٌ عِنْدَهُ قَدْ جُمِعَتْ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ فَقَالَ لَهُ مُعَاذٌ : يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ ، أَيَّمَ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا رَجُلٌ كَفَرَ بَعْدَ إِسْلاَمِهِ . قَالَ : لاَ أَنْزِلُ حَتَّى يُقْتَلَ . قَالَ : إِنَّمَا جِيءَ بِهِ لِذَلِكَ فَانْزِلْ . قَالَ : مَا أَنْزِلُ حَتَّى يُقْتَلَ ، فَأَمَرَ بِهِ فَقُتِلَ ، ثُمَّ نَزَلَ فَقَالَ : يَا عَبْدَ اللَّهِ ، كَيْفَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ؟ قَالَ : أَتَفَوَّقُهُ تَفَوُّقًا . قَالَ : فَكَيْفَ تَقْرَأُ أَنْتَ يَا مُعَاذُ ؟ قَالَ : أَنَامُ أَوَّلَ اللَّيْلِ ، فَأَقُومُ ، وَقَدْ قَضَيْتُ جُزْئِى مِنَ النَّوْمِ ، فَأَقْرَأُ مَا كَتَبَ اللَّهُ لِى ، فَأَحْتَسِبُ نَوْمَتِى كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِى .

كان هذا البعث فى ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة ، وقد حدد رسول الله ﷺ لكل واحد منهما إقليمًا ، لكنهما أخذا يتزاوران .

٤٣٤٤ – عن أَبِى بُرْدَةَ ﷺ قَالَ : بَعَثَ النَّبِىُّ ﷺ جَدَّهُ أَبَا مُوسَى ، وَمُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: « يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا ، وَتَطَاوَعَا». فَقَالَ أَبُو مُوسَى : يَا نَبِىَّ اللَّهِ ، إِنَّ أَرْضَنَا بِهَا شَرَابٌ مِنَ الشَّعِيرِ الْمِزْرُ ، وَشَرَابٌ مِنَ الْعَسَلِ الْبِتْعُ . فَقَالَ : « كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ » . فَانْطَلَقَا فَقَالَ مُعَاذٌ لأَبِى مُوسَى : كَيْفَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ؟ قَالَ : قَائِمًا وَقَاعِدًا وَعَلَى رَاحِلَتِهِ وَأَتَفَوَّقُهُ تَفَوُّقًا . قَالَ : أَمَّا أَنَا فَأَنَامُ وَأَقُومُ ، فَأَحْتَسِبُ نَوْمَتِى كَمَا أَحْتَسِبُ

قَوْمَتِى ، وَضَرَبَ فُسْطَاطًا ، فَجَعَلاَ يَتَزَاوَرَانِ ، فَزَارَ مُعَاذٌ أَبَا مُوسَى ، فَإِذَا رَجُلٌ مُوثَقٌ ، فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ فَقَالَ أَبُو مُوسَى : يَهُودِىٌّ أَسْلَمَ ، ثُمَّ ارْتَدَّ . فَقَالَ مُعَاذٌ : لأَضْرِبَنَّ عُنُقَهُ .

٤٣٤٦ - عن أبى مُوسَى الأَشْعَرِىِّ ﷺ قَالَ : بَعَثَنِى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَرْضِ قَوْمِى ، فَجِئْتُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُنِيخٌ بِالأَبْطَحِ فَقَالَ : « أَحَجَجْتَ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ » ؟ قُلْتُ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « كَيْفَ قُلْتَ ». قَالَ : قُلْتُ لَبَّيْكَ إِهْلاَلا كَإِهْلاَلِكَ . قَالَ : « فَهَلْ سُقْتَ مَعَكَ هَدْيًا » ؟ قُلْتُ : لَمْ أَسُقْ . قَالَ : « فَطُفْ بِالْبَيْتِ وَاسْعَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ثُمَّ حِلَّ » . فَفَعَلْتُ حَتَّى مَشَطَتْ لِى امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ بَنِى قَيْسٍ ، وَمَكُثْنَا بِذَلِكَ حَتَّى اسْتُخْلِفَ عُمَرُ .

٤٣٤٧ - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضى الله عنهما - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ : « إِنَّكَ سَتَأْتِى قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِى كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمْ صَدَقَةً ، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ ، فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ طَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ » .

وكانت وصيته لهما أن ييسرا على أهل اليمن ، وأن يقدما الأسهل على الأصعب ؛ لأن أهل اليمن رقاق القلوب .

وكان أبو موسى ﷺ عالمًا فطنًا حاذقًا ، ولولا ذلك لم يوله النبى ﷺ الإمارة ، ولولا ذلك لم يعتمد عليه عمر ثم عثمان ثم علىّ . رضى الله

عنهم أجمعين .

وطعن الخوارج فيه ، ونسبوه إلى الغفلة وعدم الفطنة ، لما صدر منه فى التحكيم بصفين .

وخلاصة هذه الخدعة أن معركة صفين كانت بين على ﷺ بجيشه ومعاوية بجيشه ، ودارت الدائرة على معاوية ، وهزم جيشه ، فأشار عليه عمرو بن العاص أن يأمر جنده برفع المصاحف على أسنة الرماح ، يقصد الاحتكام إلى كتاب الله ، فأمسك جند على عن القتال وتوقفوا . قال لهم على : اضربوا ولا تتوقفوا . إنها خدعة . قالوا : كيف ندعى إلى كتاب الله ثم لا نقبل ؟ قال معاوية : حكم من عندى أختاره ، وحكم من عندكم تختارونه ، نرضى جميعًا حكمهما ، وننفذ ما يحكمان به ، واختار معاوية من فريقه عمرو بن العاص ، المعروف بداهية العرب ، وأراد على أن يختار من فريقه داهية مثله ، فاختار فريقه أبا موسى الأشعرى الرجل الصالح الطيب الذى لا يعرف المكر والخديعة واللف والدوران والكذب والتزوير ونقض العهود .

واتفق الحكمان على أن يخلعا عليًا ومعاوية ، وأن يبايع الناس خليفة غيرهما حقنًا للدماء ، واجتمع الملأ ليعلن الحكمان الحكم ، وصعد أبو موسى ليقول: اتفقنا على أن يختار المسلمون خليفة غير على ومعاوية، وقد خلعت صاحبى كما أخلع سيفى من جرابه ، ونزع سيفه من غمده ، وصعد عمرو بن العاص فقال : أما صاحبكم فقد خلع صاحبه كما يخلع سيفه من غماده ، وأما أنا فأثبت صاحبى كما أثبت السيف فى غماده .

وضاع صوت أبى موسى محاولا التصحيح والرد على عمرو بن العاص ، ضاع فى الغوغاء التى هاجت بين جند الفريقين .

قال ابن العربى وغيره : والحق أنه لم يصدر منه ما يقتضى وصفه بذلك ، وغاية ما وقع منه أن اجتهاده أداه إلى أن يجعل الأمر شورى بين من بقى من أكابر الصحابة من أهل بدر ونحوهم لما شاهد من الاختلاف الشديد بين الطائفتين بصفين .

فهرس الجزء العاشر

